



جاك لندن

H.FARHAT

RABIE

نداء الغابة

(نداء الغابة)

1876 –1916

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشــراف : محمــد كمـــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



نداء الغابة

الفصل الأول

كان (بوك) كلباً رائعاً ، وقد ورث عن أبيه " إلنو " ضخامة حجمه وثقل وزنه وكثافة فرائه وكبرياءه ، وورث عن أمه " شبس " رشاقتها وصغر رأسها ونظراتها شبه الإنسانية ، وكان يتحكم في كلاب الصيد الموجودة في الحظيرة ، كالياباني البشع " توتس " والمكسيكي " إزابيل " الرمادي الأجرد . ويتحكم في الدجاج والأرانب والديكة وكل الحيوانات الساكنة في مزرعة القاضي ميلر في وادي سانتاكلارا المشمس في كاليفورنيا .

كانت المزرعة شاسعة ، ولا يظهر القصر من الطريق العام ، فالأشجار الضخمة تغطيه ، وله شرفة واسعة تدعمها الأعمدة وتطل من جهاتها الأربع على الممرات المفروشة بالرمل والمروج المرتبة المسقية التي يقوم عليها جيش من البستانيين ، كما يعتنون بأحواض ضخمة من الأزهار ، وأما أماكن البستانيين والخدم والغسالات الذين يديرون المنـــزل فهي بعيدة . ووراء هذا القصر الجميل تقع الإسطبلات والمخازن حيث تحفظ المحاصيل وأدوات الفلاحة .

منذ أربع سنوات يتجول بوك في هذا العالم بكتفيه القويتين ونظراته الذهبية ، وكان يقضي معظم وقته بجانب سيده على البساط يطرف بعينيه اللماحتين من حين إلى آخر ، أو ينظر إلى مجلات المكتبة نظرات ذكية ورأسه بين قائمتيه ، ولكنه إذا سمع أبناء القاضي في الخارج وهم يسرجون خيولهم ، رفع رأسه باعتزاز ومضى بصحبتهم يهرول في الغابات والحقول بخطوات رزينة بين الأعشاب

والشجيرات . وفي الصيف حينما يعوم الصغار في البركة ، يرى بوك من واجبه أن يتبعهم ، فيسبح سباحة رائعة ، فإذا خرج من الماء نفض فراءه ثم جرى إلى المطبخ يطالب بطعامه. وأحياناً يأتي أبناء القاضي ومعهم أولادهم ، فيحمل بوك هؤلاء الصغار على ظهره وهم يجذبون أذنيه ، وكان الصغار يحبونه ولكنهم يهابونه ، وعلى الرغم من أسنانه القاطعة في شدقه الواسع لكنه لم يستخدمها إلا في أكل الطعام .

كان شديد التدقيق في احترام النظام ولا يخالفه أبداً ، فلا يتنـــزه في الريف وحده ، ولا يدنو من البركة ولا يطارد النحل ، وكان معتزاً بنفسه مع ميل طفيف إلى التكاسل الذي يحدّ من رغبته في الجري أو حبه للسباحة .

ولا يمكن الحديث عنه أكثر من ذلك لولا أنه بلغ أربع سنوات عام **1897** ، ذلك العام الذي عزم فيه الكثير من الناس على الذهاب إلى " الشمال الفسيح " نحو منطقة كلوندايك الجليدية المهجورة .



فقد اكتشف الذهب في هذه الصحراء الجليدية الواسعة ، فغادر الطامعون في الثراء السريع أعمالهم ليجربوا حظهم في هذا الشمال الذي تجمع فيه الأموال بالجارف ، ولكن لا يوجد في الشمال شيء ، لا شمس ولا طرقات ولا غذاء ولا خيول ، وليس فيه سوى الذهب والغابات والثلوج والذئاب ، وليس فيه سوى الهنود الحمر الذين يعيشون حياة الكفاف على صيد الأسماك ونصب الفخاخ للذئاب وبيع فرائها ، وفيه الكلاب التي تجر الزحافات ، ويلزمهم الكثير من الكلاب لأن الكلب هو الحيوان الأهلي الوحيد الذي يتحمل زمهرير الجليد بعد دائرة القطب الشمالي .

إن أيّ باحث عن الذهب أو قناص أو هندي يدفع ثروة طائلة للحصول على بوك ، وهذا ما فكر فيه البستاني الشاب في مزرعة القاضي ميلر المدعو مانويل . ومانويل هذا متزوج وله أولاد ، ولم يكن راتبه ضئيلاً ولكنه يقامر فيربح حيناً

ويخسر أحياناً كثيراً ، فيأمل أن يعوض خسارته حتى تراكمت عليه الديون .

وذات مساء كان القاضي وأولاده يتجاذبون أطراف الحديث في المكتبة ، فدعا مانويل الكلب بوك إليه ، فتبعه طائعاً معتقداً أنه سيمضي به في نزهة وقت الغروب . ومشى الاثنان فاجتازا المزرعة ثم سارا بمحاذاة الطريق العام بخطا وئيدة ، وحينما وصلا إلى محطة القطار في (كولج بارك) نظر رجل غريب إلى الكلب وأطلق صفير إعجاب ثم وضع عدة قطع ذهبية في يد مانويل ، ولم يفهم بوك لِمَ طوّق مانويل عنقه بحبل ، ولكنه لم يقاومه لوثوقه بسكان المزرعة . وبدأ يزمجر حينما تناول الغريب الطرف الثاني من الحبل ، وكان جواب الغريب أن أحكم الخناق حول رقبته حتى كاد يخنقه . وأراد أن يهجم عليه ولكنه شدد الخناق أكثر فانقطع نفسه وسقط أرضاً ، ثم وجد نفسه في إحدى عربات القطار .

وتحرك القطار دون أن ينتبه إليه إذ كان مغمى عليه ، وحين عاد إلى وعيه أدرك ما حدث ، لأن القاضي كان قد اصطحبه معه عدة مرات بالقطار ، وما إن أبصر الرجل الذي دفع الذهب إلى مانويل حتى وثب عليه وغرس أنيابه اللامعة في يده حتى سمع صوت تكسر عظامها .

وأطلق الرجل صرخة هائلة ، فسارع إليه أحد مستخدمي القطار ، فقال الرجل وهو يربط يده بمنديله :

– هذا الحيوان الشرس مصاب بنوبات الصرع ، ويريد سيده أن يعالجه في سان فرانسيسكو .

فقال المستخدم وهو على مسافة من " الحيوان الشرس " :

– ألا يوجد أطباء بيطريون في هذه المنطقة ؟

– بلى .. ولكنهم أمروا بقتله ، وسيده حريص عليه .

فقال المستخدم بإعجاب :

– حقاً .. إن مثل هذا الكلب يساوي ذهباً .. بالتوفيق !.

وحينما وصلا إلى سان فرانسيسكو كانت المعركة شرسة. أما بوك فكان مغمى عليه بسبب تلك الأنشوطة التي منعت الهواء عنه ، وأما السارق فقد تمزقت ثيابه والدم يسيل من يده المربوطة بالمنديل . وساق السارق الكلب بوك وهو مغمى عليه إلى إحدى الحارات القذرة حيث ينتظره صديق له ، فقال السارق وهو يفك المنديل عن جرحه :

– خمسون دولاراً فقط ؟ وهذا الجرح الفائر في يدي ؟ والله لو بدأت من جديد لما رضيت بأقل من ألف دولار .

– وكم أخذ منك ذلك الوغد ؟

– لم يتركه إلا بعد أن قبض مائة دولار .

– المجموع مائة وخمسون دولاراً .. المبلغ ليس كبيراً في رأيي ثمناً لمثل هذا الحيوان .

– تتكلم على راحتك ، انظر إلى يدي ، لعلني لا أصاب بالسُّعار .

فضحك صاحبه قائلاً :

– الناس أمثالك لا يموتون بالسُّعار بل على حبل المشنقة .

ثم عمد الرجلان إلى برد الطوق النحاسي الذي يحيط بعنق بوك وفيه اسمه واسم صاحبه القاضي ، ثم رميا الكلب داخل قفص حديدي متين محاط بجوانب خشبية .

وقضى بوك ليلة قاسية يعاني من الألم والعطش ، وتساءل عن سبب ما يحدث له وهو الذي لم يعاقب على أعظم الذنوب بأكثر من بضع ضربات بالسوط ، وكلما سمع حركة نصب أذنيه لعله يرى القاضي أو سواه من سكان القصر. فلا يبصر سوى أحد هذين الرجلين فيزمجر حانقاً .

قدم أربعة رجال وقت الفجر وحملوا القفص ووضعوه فوق شاحنة ، وبدأ بوك يرفع صوته بالنباح والزبد يفور من

شدقه ، وانتهى به الأمر إلى التمدد منهكاً في زاويةٍ وعيناه مفتوحتان .

وظل على هذه الحالة عدة أيام تتداوله الأيدي من سيارة إلى عربة قطار وهو يرفض تناول الطعام والشراب ، حتى قطع جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها ، فإذا اقترب منه أحد المستخدمين هره هريراً مخيفاً فتركه وشأنه . وما إن وصل القطار إلى محطة ستيل حتى تنفس المستخدمون الصعداء لأنهم تخلصوا من هذا الحيوان الشرس .

حمل أربعة رجال القفص الحديدي ووضعوه وسط ساحة صغيرة محاطة بسياج ، ثم اقترب منه رجل آخر بدين يدخن غليوناً ويبصق من حين إلى آخر ، فأمسك بفأس وهراوة ودار حول القفص وهو يبتسم بمكر ، فقال أحد الرجال الأربعة :

– لا أظنك ستخرجه من قفصه الآن ؟

فقال الرجل البدين وهو يتأمل بوك من وراء القضبان :

– بلى .. وسترى كيف أفعل .

حينئذٍ تسلق الرجال السياج وجلسوا فوقه بعيداً عن الخطر يتفرجون على البدين الذي أمسك بالفأس وجعل يكسر جوانب القفص الخشبية ، وحينما سمع بوك ضربات الفأس تفك أسره شيئاً فشيئاً نهض مهتاجاً ليفترس أول من يقع تحت أنيابه ، فقال له الرجل :

– لا تهتج بهذه الطريقة يا صاحبي .. سترى كيف ستلعق يدي بعد قليل .. شيئاً من الصبر .

وتابع عمله فكسر الأخشاب المحيطة بالقضبان ، وحينما وجد أن الكلب قادر على الخروج ، رمى الفأس من يده وتراجع إلى الوراء ممسكاً الهراوة بيده مستعداً للهجوم .

ولم يلبث بوك أن صدم اللوح الخشبي الأخير ووثب مكشراً عن أنيابه والزبد يفور من شدقه ، ولم يدرك ما حدث له إذ تلقته في الهواء ضربة على خطمه وطرحته أرضاً شبه القتيل ، فأعماه الغضب ونهض واقفاً ووثب مرة ثانية

فاستقبلته ضربات الهراوة وهو في الهواء ، تحركها يد ماهرة خبيرة بالقتال وبقوة عظيمة .

ومازالت محاولاته تتكرر ولكن بشكل أكثر عشوائية ، وهو يترنح من التعب والغضب مواجهاً الهراوة الضخمة ، وبعد عشرات الهجمات كان بوك مذهولاً أصم أعمى والدم يسيل من منخريه وأذنيه ، فارتمى على الأرض فاقد الوعي ، ولم يبق من بوك الرائع شيء ، حينئذٍ تقدم إليه الرجل ورفع هراوته وأهوى على خطمه بضربة قوية موجعة ، فنبح بوك نباحاً عالياً من شدة الألم ، واستجمع قواه واندفع نحو الرجل ولسانه متدل ، فرمى الرجل هراوته وأمسك برأس بوك وأغلق فكّيه ثم رفعه عن الأرض ولوّح به في الهواء كأنه كيس من الكتان ، ثم رماه في الباحة بعيداً ، وظلّ بوك هامداً مهزوماً يكاد يفارق الحياة .

فقال أحد الرجال المتفرجين :

– أرأيت هذا ؟ لا مثيل له في ترويض الكلاب .

فقال الثاني وهو يهبط عن السياج :

– أنا أفضل تكسير الحجارة طول حياتي على ممارسة هذه المهنة ، إنها تثير الاشمئزاز .

واستعاد بوك وعيه شيئاً فشيئاً دون أن يتحرك ، ورأى عبر حجاب أحمر الرجل البدين يقترب منه ثم يجثو بجانبه ويقول :

– كيف رأيت يا بابا ! هل تحسنت حالتك الآن ؟ وما هو اسمك ؟

ونظر إلى البطاقة الملصقة على القفص وقال :

– بوك .. هذا اسمك ؟ فهل فهمت المطلوب منك الآن يا بوك ؟ إذا كنت كلباً مطيعاً لقيت كل خير ، وإذا ساء سلوكك فالهراوة بانتظارك .

وبعد قليل جاءه الرجل البدين بالماء فشربه راغباً ، وقدم إليه قطع اللحم فتناولها واحدة تلو الأخرى بكل خضوع .

لقد رُوّض بوك ، ولن يعرف سوى شيء واحد هو أنه غير

قادر على مخالفة أوامر الرجل البدين ، وقد تعلم أن القانون يفرضه الأقوى ، وتأكد بوك من صحة هذا القانون حينما شهد مزيداً من الكلاب الأخرى ترد إلى الساحة المسيّجة فيعاملها الرجل البدين المعاملة القاسية ذاتها ، فكانت بعض الكلاب الذليلة تلعق يديه ترجوه أن يكف عن ضربها ، وأما بوك فينظر إلى سيده باستعلاء ويطيع أوامره وهو يحدق فيه .

وذات يوم دخل الحظيرة رجل فنظر إلى بوك وصاح :

– ما أروعه من كلب ! بكم تبيعه ؟

فقال الرجل البدين :

– بثلاثمائة دولار .. إنه هدية مجانية تقريباً .. فهو حيوان رائع .. ثم إنها أموال الحكومة ، أليس كذلك يابيرو ! ليست أموالك فلا تهمك .

وكان بيرو خبيراً في معرفة الكلاب ، فضحك وهو يفحص بوك .

– نعم .. إنه كلب رائع ، والحكومة الكندية تبحث عن كلاب سريعة لنقل البريد ، وهذا يصلح لتلك المهمة .

وبعد أن دفع الرجل للبدين مالاً ، نادى بوك فتبعه ، كما تبعه كلب آخر يدعى كورلي كان قد وصل هذا الصباح .

وركب بوك سفينة تنفث دخاناً من أعلاها ، ونظر مبتهجاً إلى أرصفة ستيل وهي تبتعد عنه ، ولكنه يجهل بالطبع أنه لن يرى أبداً ضفاف الجنوب الدافئة .

الفصل الثاني

تعرف بوك بعد الكندي بيرو
إلى زميله وصديقه فرانسوا الذي
كانت بشرته سمراء ، وهو خلاسي
خليط من فرنسيي كندا والهنود ،
وكان عملاقاً جهير الصوت ويجيد
التحدث إلى الكلاب ، وما لبث بوك أن أحس بالمهابة
والاحترام تجاه هذين الرجلين والثقة المطلقة في عدالتهما
ومعرفتهما العميقة بالكلاب .

وتعرف بوك وكورلي في عنبر السفينة المتجهة نحو
الشمال إلى كلاب أخرى اشتراها هذان الشرطيان من
الشرطة الاتحادية . كان أول هذا الكلاب أبيض اللون طويل
الذيل ، من فصيلة " سبيتز " وهو ذكي ماكر ، حاول من
الوجبة الأولى خطف حصة بوك الذي ارتمى عليه ، ولكن

لسعات سياط فرانسوا أجبرت السبيتز على ترك السمكة
المجففة فوراً ، فارتفع فرانسوا بنظر بوك .

أما الكلب الثاني ديف فكان متوحداً لا يختلط بأحد ،
وأفهم كورلي الذي تودد إليه عدة مرات بأنه يريد البقاء
وحده . ولئن كان ديف لا يفكر في غير الأكل والشرب
والنوم ، فإنه ليس لصاً على الأقل ويمكن التعايش معه .

بعد أن دخلت السفينة خليج " الملكة شارلوت "
ارتفعت الأمواج واصطخبت محركات السفينة ، فكاد أن
يصاب بوك وكورلي بالجنون ، وأما ديف فكان يتثاءب وهو
ينظر إليهما ويعود إلى النوم . وانتهى الأمر بالكلبين إلى
الهدوء بعد أن اعتادا الضوضاء .

ومع مرور الأيام انخفضت درجات الحرارة بحيث إن بوك
لم يتعرض لمثلها في حياته أبداً .

ثم جاء يوم وتوقفت السفينة فيه وارتفعت الضجة بين
ركاب السفينة ، ونزل فرانسوا إلى العنبر لكي يربط

الكلاب ، كل اثنين معاً ويسوقها إلى الخارج . وكان الطقس قارساً زمهريراً .

بعد أن نزل بوك عن السلم ووضع قدمه على الرصيف أحسّ بالغرابة ، إذ أنها غاصت في شيء ناعم أبيض كالتراب ولكنه شديد البرودة ، فنبح ونظر حوله فإذا أشياء صغيرة تتطاير حوله في الهواء ويقف بعضها على فرائه ، فالتهم واحدة فأصيب بالذهول : كانت لاذعة كالنار وتذوب كالماء ، وضحك بعض المتفرجين لذهوله ، ولكن عذر بوك أنه لم ير الثلج في حياته .

أما اليوم الأول في (دبيا) فقد كان أصعب يوم في حياة بوك ، وكانت كل لحظة تحمل إليه مفاجأة أو حيرة جديدة ، فقد نشأ في حضارة الجنوب ووجد نفسه مرمياً وسط حضارة متوحشة حيث الخطر يترصده ، فالناس والحيوان يحكمهم قانون الغاب أو العصا .

فوق هذه الأرض الجليدية كانت الكلاب كثيرة وهي تتقاتل قتال الموت لأبسط سبب ، وأول احتكاك له بهذه الكلاب الشبيهة بالذئاب كان محفوراً في ذاكرته لأنه تسبب في مصرع كورلي الذي حاول التودد إلى أحد هذه الكلاب شبه المتوحشة الشبيهة بالذئاب ، ولكنها بنصف حجمه ، وكان الجواب سريعاً كالصاعقة ، إذ اندفع إليه الكلب وشقّ خد كورلي بأنيابه ، إنه أسلوب الذئب في القتال يضرب ويهرب ، وقد اجتمع حولهما قرابة ثلاثين أو أربعين كلباً في حلقة ، وقد أقعت على مؤخراتها وعيونها تلمع وهي تتململ من حين إلى آخر ، وتقضقض بأسنانها ، وحينما أفاق كورلي من دهشته أعاد هجمته فاستقبله الكلب الشرس بعضة أخرى ، ثم بدَّل أسلوب قتاله الذي لا علم لكورلي به ، إذ صدمه بكتفه فدحرجه بعيداً ، حينئذٍ هاجمه رهط الكلاب كله واختفى كورلي تحته ، وكان سبيتز يرقب ما يحدث ممدود اللسان كأنه يضحك هازئاً .

سارع فرانسوا وبعض الرجال وجعلوا يضربون بعصيهم يميناً ويساراً فتفرقت الكلاب هاربة ، وظل كورلي على الأرض صريعاً ، وتأمل بوك هذا المشهد الرهيب زمناً طويلاً ، ولم يكن لديه الوقت لكي يألف كلاب هذه المنطقة لأن فرانسوا استخدمه في جر الزحافة ، فأحاط صدره بحزام من الجلد ثم وصله بحبل متين إلى الزحافة المصنوعة من الخشب . وربط الكلبين الآخرين أيضاً بحبلين متفاوتي الطول.

أصبح بوك شديد الحذر بحيث لا يعلن تمرده ، ويبذل جهده قانعاً بحظه من الحياة ، ووراءه ديف وهو كلب زحافة متدرب يعضه إذا أبطأ في السير ، فإذا التفت ليرد عليه نالته لسعات سوط فرانسوا تلهب أنفه . في المقدمة كان سبيتز يقود الزحافة ويزمجر كلما ارتكب أحد الكلاب خطأ ، ويضع كل ثقله في جر الأحزمة ليوجهها في المسار الصحيح .

وقد أحرز بوك تقدماً سريعاً بفضل توجيه زميليه له ولسعات سوط فرانسوا وإرادته الصلبة ، وتعلّم صيحة السير (هيّا) والتوقف (هوب) ، وعرف كيف يجتنب الزحافة في المنحدرات والمنعطفات ، وكان فرانسوا راضياً عنه ، فقال لبيرو :

– إن شراء بوك صفقة رابحة ، هو لا يعرف شيئاً ولكنه قوي البدن سريع البديهة ، وأما الكلبان الآخران فممتازان .. لدينا طاقم زحافة رائع .

بعد الظهر جلب بيرو كلبين آخرين هما بيلي وجو من أم واحدة ولكنهما لا يتشابهان ، " بيلي " كلب هادئ ودود ، ميّال إلى الجبن ، على حين أن جو مشاكس لا يهدأ ، وعقد بوك صداقة مع بيلي بأسرع مما عقدها مع جو . وقد حاول بيلي أن يحرك ذيله معلناً عن حسن نواياه ، وإذا سبيتز ينهش كتفه ، وأما جو فلا يقدر عليه سبيتز ، وكلما هاجمه وجده حاضراً بارزة أنيابه مستعداً للدفاع ، يجعل أذنيه المدببتين إلى الوراء ويوسع عينيه ويزمجر زمجرة هائلة ، ولا يهاجم ولكنه ينذر بأن جِلْده في الحوادث غالي الثمن . ولا يصرّ سبيتز على الهجوم ولكنه يخفي حذره بملاحقة بيلي الذي يهرب أمامه خلال الحقول .

مساءً جلب بيرو كلباً آخر من المنطقة ذاتها ، وهو نصف داجن يمشي مشية الذئب وقد ملأت جسمه الندوب ، وكانت له عين واحدة ولكنها تلمع بالرهبة والشجاعة . وحينما وصل وسط الكلاب الأخرى تشممها واحداً بعد

الآخر فلم يجرؤ سبيتز النـزق على التعرض له ، واسمه (سوليك) ومعناه باللغة المحلية : الغاضب ، وكان مثل ديف لا يطلب شيئاً من أحد ولا يرفع الكلفة معه ، وسرعان ما أدركت الكلاب أن سوليك لا يحب أن يقاربه أحد من جهة عينه العوراء لأنه لا يراه ، وقد فعلها بوك ذلك المساء فكان جزاؤه جرحاً في الكتف طوله ثلاثة سنتيمترات فلم يعد إليها .

ذلك المساء واجهت بوك مشكلة كبرى ، هي أين وكيف ينام في بلاد الثلج هذه ؟ وحينما أقبل الليل كانت الخيمة مضاءة ويبدو عليها الدفء ، فدخلها بشكل طبيعي ليحتمي فيها ، وسرعان ما خرج منها كالصاروخ تلاحقه لعنات فرانسوا وبيرو وأنواع كثيرة من المقذوفات .

جعل بوك يتجول حول الخيمة لعله يجد أصحابه فلم يرهم ، فأين مضوا ؟ وبحث في كل مكان فلم يجدهم ، وفيما هو حائر يتلفت حوله عثرت قدمه بشيء ليّن تحت الثلج

يتحرك ، فنبحه وكشّر عن أنيابه ، فإذا الكلب بيلي يخرج من تحت الثلج ويستلقي على ظهره علامة الرضوخ التي يلجأ إليها الكلب المسالم .

بذل بوك جهداً عظيماً حتى حفر كوخاً صغيراً تحت الثلج يتسع لجسمه ، ثم دخله والتف حول ذاته ، وسرعان ما ارتفعت الحرارة داخل الكوخ ونام بوك هانئاً .

في الصباح واجهته مفاجأة أخرى ، فقد سمع ضجة في المخيم ونباح الكلاب ، فتحرك لينهض فلم يستطع لأن تساقط الثلج طول الليل سد الفتحة التي حفرها للدخول ، فانتابه ذعر شديد وهو يرى نفسه حبيس هذا الجدار الجليدي ، فكشر عن أنيابه وهاجم هذا المجهول الذي لا يدرك كنهه ، فإذا به يخرج إلى الهواء بين ضحكات الرجال .

قال فرانسوا لصاحبه وهو يضحك لمنظر الكلب الكبير المذهول وهو يجد نفسه بسهولة فوق الأرض :

– ألم أقل لك ؟ إن بوك يتعلم بسرعة ، فقد تعلم كيف ينام ، وبقي عليه أن يتعلم كيف ينهض من نومه .

فهزّ بيرو رأسه وهو مغتبط لشرائه هذا الكلب الذي يعلق عليه آمالاً كبيرة ، لأن بيرو ساعي بريد لدى الحكومة الكندية ، وتقوم شهرته على سرعة طاقمه من الكلاب .

بعد ساعة وصل ثلاثة كلاب جديدة اختارها الساعي بعناية ، فأصبح عدد الكلاب تسعة . وأسرجت الزحافة ، وبعد ربع ساعة كانت تسير في اتجاه (ديياكانيون) .

لم يجد بوك هذا العمل مهيناً وإن كان مرهقاً ، وسرعان ما انساق مع الحماسة التي يبديها أصحابه ، ومالفت انتباهه حماسة ديف وسوليك ، فعلى الرغم من أنهما لا يهتمان بالكلاب الأخرى إلا أنهما يباشران هذا العمل بإخلاص ومتعة ، ولا يصفحان عن أي فوضى مهما كانت ، وقد عمد فرانسوا إلى جعل بوك بين ديف وسوليك لأنهما متدربان ولن يبخلا عليه بالمعرفة ، وإذا أبى نالته عضاهما ، ولأن بوك غرّ

مبتدئ فقد أصابته عضات كثيرة تدعمها لسعات فرانسوا ، ففضل أن يتعلم من أخطائه بدلاً من التمرد .

وهذا قرار حكيم لكن تنفيذه ليس سهلاً ، ففي إحدى الاستراحات تشابكت حباله بعضها ببعض فتأخر الانطلاق ، وهجم عليه ديف وسوليك وقد هاجا من الغضب ، فازداد تشابك الحبال مما اضطر فرانسوا إلى إعادة التنظيم بكثير من الصرامة ، ومنذ ذلك الحين حرص بوك على ألا تتشابك حباله .

أثناء استراحة المساء ، كان بوك قد تعلم عمله تقريباً وقلّت لسعات صوت فرانسوا ، ولم يعد صاحباه ينبهانه إلى خطأ . وفرح الرجلان به ، وانصرف بيرو إلى بوك فجعل يتفحص قوائمه مدة طويلة قبل النوم .

كانت الزحافة قد قطعت الأودية والغابات التي جمدها الصقيع ، وعبرت السهول المغطاة بالثلوج ووصلت إلى بداية منطقة القطب الشمالي الحقيقية .

وصلت الزحافة الاستراحة بعد أن أظلم الليل ، والاستراحة مخيم مقام على جانب بحيرة (بينت) حيث يعمل مئات الرجال الباحثين عن الذهب في بناء الزوارق منتظرين ذوبان الثلوج . وحفر بوك سريره ونام كالبارحة ..

الفصل الثالث

من الغد كان الظلام مخيماً حينما انطلقت الزحافة ، وفي ذلك اليوم قطعت الزحافة أربعين ميلاً لأن الطريق قد مهدها الزحافات ، وانطلقت فيها كالريح ، ولكن أبطأ سيرها في الأيام التالية لأن الطريق غير مطروقة ويصعب جر الزحافة فوق الثلج الطري ، وكان بيرو يمشي أمامها يمهد الطريق بمزلاجيه على حين يمسك فرانسوا بمقود الزحافة . لقد كان بيرو مستعجلاً لنقل البريد بأسرع ما يمكن ، وعليه أن يكون حذراً لئلا ينهار الجليد الذي يغطي مجاري الماء .

ومرت الأيام تلو الأيام ، فتنطلق الزحافة فجراً ، فما أن يحل المساء حتى تكون قد قطعت عدداً كبيراً من الأميال ، ولا تتوقف إلا في ظلام الليل ، فيوزع على الكلاب طعامها

من السمك المجفف ثم تنام ، فينال كلّ كلب رطلٌ ونصف من السمك ، ولكن بوك ضخم الجثة لا تكفيه حصته ، فهو دائم الجوع ، ولا تبدو على الكلاب الأصغر منه حجماً أنها تعاني من هذه المشكلة ، ولعلها اعتادت عليها . والحق أنها تهجم على طعام جارها إذا أنهت نصيبها قبله ، فتعلم بوك التهام طعامه بسرعة هائلة عوض أن يتلذذ به ، ولا يتردد في أكل طعام جاره كله إذا سنحت له الفرصة .

رأى ذات يوم الكلب (بايك) يسرق فخذاً من اللحم المقدد دون أن يلمحه بيرو أو فرانسوا ، فقلده ولكنه استخدم وسيلة أكثر اتقاناً بحيث توجهت الاتهامات إلى الكلب (دوب) فضربه الرجلان ضرباً مبرحاً ، ودفع ثمن سرقة لم يرتكبها . كذلك كان حظ هذا الكلب المسالم دائماً أن يدفع ثمن أخطاء الآخرين ، وبذلك خسر بوك من الناحية الأخلاقية ما ربحه من دهاء .

والحق أن الجوع قد دفعه إلى السرقة لأنه لا احترام في هذه البلاد إلا لقانون القوة .. أما من الناحية البدنية فقد غدا بوك قوي العضلات شديد المقاومة لضرب السياط وعض الأنياب ، ولم يعد يتورع عن التهام الحيوانات الميتة ، وأُرهف سمعه إلى درجة قصوى ، فهو يفرق في نومه بين الأصوات ويعرف عدوه من صديقه ، وتعلم كيف يكسر الجليد بقائمتيه الأماميتين ليشرب الماء تحته . كما نمت لديه غريزة خاصة هي التكهن بقدوم الريح واتجاهاتها ، فيحفر مرقده في الثلج بحيث يكون ظهره لها ، وتعلم أيضاً أسلوب الذئاب في القتال ، فيهجم مندفعاً فينهش ثم يتراجع إلى الوراء ، فلم يعد يجرؤ كلب على مهاجمته .

في الليالي الباردة يرفع عنقه إلى السماء ويمد صوته بالنباح ينادي القمر لنجدته ، ويدعو أسلافه الذين ابيضت عظامهم تحت هذا الركام من الثلج والجليد .

عادت إلى بوك الضخم غريزته المتوارثة عن أسلافه فكان يتجنب خوض المعارك مع زملائه ، ولكن يخفي حقداً دفيناً للكلب سبيتز ، وأما سبيتز فكان يحذر بوك ، ولكنه لا يفوت فرصة كي يتحداه فيها ويجره إلى معركة فاصلة ، وقد نجح في ذلك أثناء الرحلة .

كان المخيم منصوباً ذلك المساء على ضفاف بحيرة (لابيرج) وقد ارتفعت ريح عاصفة باردة أجبرت الرجلين على الوقوف في مكانهما الذي كان وبيئاً بين البحيرة وكتلة من الصخور ، وكان ينبغي لهما إشعال النار بالأغصان اليابسة على سطح البحيرة ذاتها بحيث أذابت الجليد ، ولم يكن أمام الرجلين سوى وقت قصير لتطرية الأسماك وتسخين الحساء الذي تناولاه في الظلام . وكان بوك قد حفر مرقداً في الثلج قرب الصخور ، حينما جعل فرانسوا يوزع العشاء على كلابه ، فغادر بوك الحفرة آسفاً والتهم طعامه وعاد ليجد الحفرة مسكونة ، وعلم من صوت الهرير أن السارق

سبيتز ، فسيطر عليه غضب هائل أدهش سبيتز الذي كان يظن بوك غير ميال إلى القتال ، وأن تفوقه يعود إلى حجمه الضخم لا لشجاعته ، ورآهما فرانسوا فذهل لهذه الروح القتالية التي سيطرت على بوك فصاح به :

– هيا يا بوك " أدّب هذا السارق " .

فوقف الخصمان وقد كشرا عن أنيابهما ونفشا فراءهما يتداوران لكي ينتهزا فرصة للهجوم . حينئذٍ صاح بيرو مستغيثاً وهراوته تهوي على الكلاب التي تنبح متألمة .

لقد هاجمت عصابة من الكلاب البرية المخيم ، وكان عددها حوالي الستين كلباً . ولمح بيرو أحدها يمدّ خطمه في كيس المؤونة ويجذبه فينثر محتوياته على الثلج ، فأهوى عليه بهراوته ، ولكن الكلاب الأخرى استغلت هذه الفرصة لتنهب ما تصل إليه وهي تنبح كالمسعورة ، وسمعت الكلاب النائمة النباح فانتفضت من مرقدها واندفعت إلى مهاجمة الغُزاة ، ولم ير بوك في حياته كلاباً بمثل هذه الشراسة ،

ضامرةً جلداً على عظم ، دامية العيون يتطاير الزبد من أشداقها ، وتقاتل كالمخبولة .

ولم تمض لحظة حتى حوصرت كلاب الزحافة بقرب الصخور ، وقد أحاط بها المهاجمون من كل صوب ، واشتبك بوك مع ثلاثة كلاب في آن واحد فدمي كتفه ورأسه . وأما بيلي الوديع فكان يهرّ خائفاً كعادته ، على حين كان ديف وسوليك يقاتلان جنباً إلى جنب بشجاعة مذهلة ، وآذاهما ممزقة دامية . وأبلى جو بلاء حسناً فكان يعض القوائم فتتكسر العظام تحت أسنانه . أما بايك المشاكس فقتل أحد المهاجمين بأن كسر ظهره ، ولا يرى بوك عنقاً إلا غرس فيها أنيابه ، وقد أثاره مذاق الدم ، وإذا به يحسّ أسناناً تنغرس في خاصرته ، ولم يكن هذا سوى سبيتز الذي باغته بالهجوم مستغلاً وضعيته ، ولكن بيرو وفرانسوا قد سارعا لحسن الحظ إلى نجدته ، وأبعدا عنه غدر هذا الخائن ، بعد أن طاردا الكلاب المغيرة التي جددت هجمتها وقد تناقص عددها ،

لكن ازدادت شراستها وتصميمها على الموت ، حتى إن الكلب بيلي أطلق قوائمه للريح وقد اخترق دائرة المهاجمين واندفع غير مبالٍ بالخطر ، وتبعه بايك ودوب فوراً ثم لحقت هم بقية الكلاب بما فيها بوك . ونجا كلّ منهم بنفسه ، ثم تنادوا واجتمعت الكلاب التسعة في الغابة وقد أثخنتها الجراح ، وكانت جراح بعضها بليغة . أما (دوب) فقد جرح جرحاً غائراً في قائمته الخلفية ، و (دولي) جرح في عنقه ، وفقد جو إحدى عينيه ، وانتزعت من بيلي البائس أذنه والتهمت حالاً فكان ينوح ويبكي حتى الفجر .

صباحاً عادت الكلاب إلى المخيم متهالكة على نفسها وقد ابتعد الغُزاة بعد أن نهبوا نصف المؤونة وتركوا الرجلين في حالة مزرية ، لقد التهمت الكلاب المغيرة كل ما وقع تحت أسنانها ، إذ التهمت أحزمة الزحافة وجزءاً من بوط فرانسوا وزوج أحذية لبيرو . واستقبل فرانسوا الكلاب بابتهاج ، وجعل يتفحص جراحها بعناية ، ثم هز رأسه وقال :

– ما رأيك يا بيرو ؟ هل تظنها أصيبت بالسّعار ؟

– إنها النهاية إذن !

وكان بيرو شديد القلق لأن خوف فرانسوا في محله ، فأمامهما أربعمائة ميل إلى داوسون !

وتطلب الأمر ساعتين من الجهد كي يسرجا الزحافة ، إذ كانت الكلاب منهكة دامية ، وأمامها الجزء الأصعب من الرحلة ؟

كان النهر المدعو " ثيرتي مايل " أي الثلاثين ميلاً ، سريع الجريان لا يجمده الجليد إلا في بعض أجزائه البطيئة ، ولا يستطيعون قطع هذه المسافة في أقل من ستة أيام ، فكان بيرو يتقدم الزحافة ، وكثيراً ما انهار الجليد تحت قدميه ولم ينقذه سوى عصاه الطويلة التي يستعين بها على النهوض ، والليل بارد يبلغ الخمسين درجة تحت الصفر ، فيضطر إلى إشعال النار وتجفيف ثيابه ، ولكنه يمشي قُدُماً لا يثنيه عن عزمه شيء ، ويعينه فرانسوا بقوته العظيمة المفيدة في الأزمات .

وحدث ذات مرة أن ثقبت الزحافة الجليد ، واستطاع فرانسوا أن ينتزعها من الماء ، وكاد بوك وديف أن يهلكا برداً ، فأُشعلت النار لإذابة قطع الجليد التي غطتهما . وفي مرة ثانية غطس سبيتز وجرّ وراءه بعض الكلاب فبذل الرجلان جهوداً جبارة لانتشالها .

وكانت أصعب المراحل حينما ذاب الجليد تماماً واضطر الرجلان إلى اجتياز النهر مشياً على الأقدام من خلال الصخور والأوحال ، فرفعا الزحافة ثم حملا الكلاب واحداً تلو الآخر ، وحينما حلّ الظلام كانا قد قطعا مسافة كيلو متر واحد من نقطة الانطلاق .

حين وصلوا إلى (هوتلينكا) كان الجليد أكثر صلابة ، ولكن الكلاب منهكة ، فلم يتردد " بيرو " في طلب المزيد منها لتعويض الوقت الضائع ، فكان ينهض باكراً ويتوقف متأخراً ، فقطعوا الثلاثين ميلاً .

أما بوك فقد ساءت حالته لأن باطن قوائمه لم يتعود على الجري ولم يخشوشن جلده ، فكان يعرج متحاملاً على نفسه يقاسي الآلام ، فإذا حل المساء ارتمى غير قادر على الحركة وليس فيه قوة لأخذ سمكة عشائه ، مما يضطر فرانسوا إلى جلب عشائه إليه . واعتاد أن يفرك فرانسوا قوائمه كل مساء بعد العشاء ، ثم مزق أحد أحذيته ليصنع له منها أربعة خفاف تغطي باطن قوائمه ، فأحس بالراحة . فإذا توقفوا في مرحلة كان بيرو يضحك ضحكاً عالياً وهو يرى بوك راقداً على ظهره رافعاً قوائمه يتوسل أن تفك عنه هذه الخِفاف . وكلما مشوا مسافة خشنت قوائمه حتى هَرأت خفافه وسقطت دون أن تستبدل .

ذات صباح حدث أمر هائل أثار فزعهم جميعاً ، وذلك أن دولي قد ظهرت عليه علامات السعار ، فأطلق صراخاً عالياً جمد الدم في عروق الكلاب والرجلين معاً ، ولم يكن بوك قد رأى كلباً مسعوراً من قبل ، ولكن غريزته دفعته إلى

الهرب والاختباء حينما هاجمه دولي والزبد يفور من شدقيه ، ومازال يجري والكلب المسعور يلاحقه ، حتى سمع نداء فرانسوا فعاد إليه وقلبه يخفق من الخوف ، ولكن ثقته بحكمة سيده دفعته إلى إطاعته . وكان فرانسوا ينتظره ثابت القدمين ، وحين مرّ به الكلب المسعور أهوى عليه بفأسه اللامعة فقتله . في تلك اللحظة هجم سبيتز على بوك ، ولم يكد يصل فرانسوا إليهما حتى كانت أسنان الخائن قد انغرست في لحم كتفه ، ورآه ينال من سوط سيده ضرباً لم يشهده من قبل .

كان الرجلان يتناولان العشاء ويتبادلان الرأي ، فقال بيرو : أظن أن سبيتز الشيطان مجسداً ، واذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف يقتله غدراً كعادته .

فقال فرانسوا : رأيي أن بوك يساوي عدة كلاب مثل سبيتز ، وسوف يطفح به الكيل فنرى سبيتز أشلاء فوق الثلج .

– لا تفيدنا هذه الكراهية الدائمة بين الكلاب .

والواقع أن الحرب قد نشبت بين هذين الكلبين ، وكان سبيتز معتزاً بدوره كزعيم لطاقم الكلاب ، وأحس كأن سلطته قد تضاءلت بوجود هذا الكلب الجنوبي المختلف عما سواه .



بدأ بوك يتحمل التعب والحرمان ويقوى جسده على المشاق وينافس كلاب الشمال بقوته وحيلته ومقاومته ، وكانت شراسته ضعف صبره ، مثلما هي الذئاب المتوحشة ، وجعل بوك يتحرش بسبيتز الذي سيطر عليه هوسه بجر الزحافة وتزعم طاقم كلابها ، وأراد أن ينتزع منه مكانه ، ولكن حب الزعامة يجري مجرى الدم في سبيتز ، وهو مستعد للنضال حتى الموت ضد كل من يتطلع إلى هذه الزعامة أو يقف في سبيلها ، وبدأ بوك يتجاوز سلطة سبيتز على كلاب الزحافة ويدافع عنهم حين يريد معاقبتهم بحق .

وذات صباح لم يظهر بايك وكان الثلج قد تساقط أثناء الليل بكمية كبيرة ، وبحث عنه فرانسوا وناداه فلم يجده ، واهتاج سبيتز لهذا التأخير فمضى يتشمم ويفتش في كل مكان وهو يزمجر مهدداً بايك الذي لم يجرؤ على الخروج خوفاً من العقوبة .

وحين اكتشفه سبيتز وثب عليه يعلمه عاقبة الكسل ، فتدخل بوك ودفع بكتفه سبيتز دفعة قوية دحرجته ، فاستعاد بايك المذعور شجاعته وأهوى على زعيمه بأسنانه . والحق أن بوك ساعده على مهاجمة سبيتز بعنف شديد ، فتدخل فرانسوا في الوقت المناسب ووزع ضرباته بالعدل على الجميع ، ولكنه اضطر إلى استخدام مقبض سوطه لإبعاد بوك وانهال عليه ضرباً ترسّخ في ذاكرته .

كانت الأيام التالية مرهقة للرجلين لأنهما بذلا جهداً كبيراً للسيطرة عل الكلاب التي تمردت بتحريض من بوك ، ولم يحترم النظام سوى ديف وسوليك اللذين يستمتعان بعملهما ، ولطالما نهض فرانسوا ليلاً ليمنع النـــزاع أو يفك الاشتباك ، وأحكم الرقابة على بوك وسبيتز اللذين لم تتح لهما فرصة للقتال حتى الموت ، وأخيراً وصل الجميع : الرجلان والكلاب إلى داوسون خائري القوى لا يكادون يقوون على الحركة .

كانت داوسون بلدة صغيرة لا ريب ، ولكنها بالقياس إلى ما اجتازوه من صحارى جليدية قاحلة ، بدت لهم مدينة هائلة ، تجتاز شوارعها الزحافات تجرها الكلاب حاملة الأخشاب والحطب والمواد الغذائية والبضائع . والكلاب في الشمال بمثابة الخيول في المناطق الجنوبية ، ومعظمها مُهجنة من الذئاب والكلاب ، فإذا أقبل الليل والتمعت النجوم في السماء رفعت رؤوسها إلى أعلى وبدأت تعوي عواء حزيناً مخيفاً ، وقد تعلم بوك كيف يعوي مثلها فانضم إلى هذه الفرقة الكئيبة ، وكأن هذه الحيوانات تستعيد ذكرياها الدفينة في غريزها حينما كانت تعيش طليقة في هذه الصحاري الجليدية قبل أن يستذلها الإنسان بضربات هراوته .

بعد أسبوع من الراحة استعد بيرو للرحيل ، لأنه سينقل رسائل عاجلة إلى (ديبا) و (سالت ووتر) وهو يتعطش إلى تحطيم الرقم القياسي في هذه الرحلة .

وقد أحسن التوقيت لأن الكلاب مستريحة والطريق جامدة ممهدة تتابعت عليها الزحافات ، والأمتعة خفيفة ، كما أن الشرطة الفيدرالية أقامت عدداً من المخازن على الطريق ، فالظروف مثالية إذن .

اجتازوا منحدرات جبال (البراكس) المطلة على وادي (يوكون) وقطعوا ستين ميلاً دفعة واحدة في اليوم الأول ، ومن الغد اجتازوا النهر الكبير مخلفين (يوكون) وراءهم . ولم تكن سرعتهم هذه دون مجهود عظيم بذله الرجلان ، وذلك أن التنافس المعلن بين بوك وسبيتز قد أساء إلى العمل الجماعي الذي كان يسود طاقم الكلاب ولم تعترف بسلطة سبيتز المطلقة عليها .

ذات مساء خطف منه (بايك) نصف سمكة وابتلعها تحت بصر (بوك) وموافقته ، وهاجمه (دوب) و (جو) وجرحاه ، حتى (بيلي) المسالم كشر له عن أنيابه ، وبيّن بوك للجميع كراهيته لسبيتز معتمداً على تفوقه في الحجم

والقوة ، وانتقلت عدوى التنافس هذه إلى بقية الكلاب فكانت تتشاجر فيما بينها على الدوام ، وكاد صوت فرانسوا يُبَحّ وهو يلعن الكلاب ويناديها وينهال عليها بسوطه ، وما إن ينفصل عنها حتى تنشب المعارك بينها . وعرف أن منشأ هذه الفوضى كلها بوك فكان يشدد الرقابة عليه ، ولكن الكلب أتقن لعبة المكر والدهاء ، فكان لا يهمل عمله ولا يجلب اللوم إليه ، ويحرص على تأليب الكلاب على خصمه .

وصلت الزحافة إلى مصب نهر (التاخنا) . وبعد العشاء نبش (دوب) الثلج عن أحد الأرانب ولم يستطع القبض عليه فوراً ، فطاردته الكلاب كلها دفعة واحدة ، وبعد مائة متر انضمت إليهم عصابة من كلاب الهنود الحمر ، فكان الأرنب يجري بسرعة مذهلة ولا تكاد قوائمه تلمس الثلج ، والكلاب وراءه وقد ملأت الجو نباحاً وضوضاء .

كان بوك يجري في المقدمة والقمر ينعكس على فرائه الأبيض وكأنه استعاد رغبته الغريزية في القتال وشرب الدم الحار . أما سبيتز الذكي فقد انفصل عن المجموعة كلها واخترق الغابة لكي يقطع الطريق على الأرنب . ولا أحد يدري كيف عرف أن النهر يدور حول الغابة ثم يظهر من الناحية الثانية . ولم يلحظ بوك اختفاءه إذ كان مشغولاً بمطاردة الأرنب ، وقد بقيت بينه وبين فريسته عدة أمتار حينما ظهر سبيتز وخطف الأرنب وقتله بعضة واحدة . وأطلق الأرنب صرخة عالية جاوبتها أصوات الكلاب المتدافعة .

لم يتوقف بوك ولكنه هجم على سبيتز ودفعه بكتفه دفعة قوية ، فتدحرجا معاً على الثلوج ، ونهض سبيتز فعضه عضة شرسة ، فارتد بوك إلى الوراء ثم هجم فاغراً شدقه لينهش عنق خصمه ، إنها المعركة الفاصلة ..

تجمعت الكلاب كلها حولهم في دائرة وهي تلهث وتلعق شفاهها بألسنتها الحمراء ، ودار الخصمان أحدهما حول الآخر وقد كشرا عن أنيابهما وخفضا آذانهما ونفشا فراءهما ، ينتظر كلٌّ منهما غفلة ينتهزها ليبطش بعدوه ، وكان الصمت تاماً تحت ضوء القمر ، والثلج أبيض كأنه تحت نور النهار .

المعركة الفاصلة شرسة ، لأن سبيتز كلب متدرب على القتال وقد خاض مئات المعارك وخرج منها منتصراً لأنه الأقوى والأشد دهاء والأكثر شراسة ، فلا يهاجم أولاً بل ينتظر هَجْمَة عدوه ، فإذا نال منه لم يفرح بذلك لأنه يعلم أن كل جرح يزيده هياجاً . أما بوك فكان في رأسه فكرة وحيدة : قتل سبيتز ، ولكن هجماته العنيفة لم تفده ، وأنيابه المصوّبة إلى عنق خصمه تصادف أنياباً أشد منها ، فتصطدم الأنياب بالأنياب ، وتسيل الدماء من الشفاه . وكاد يجن من الغضب فهجم على سبيتز وداوره ، فإذا اندفع إليه تلقى

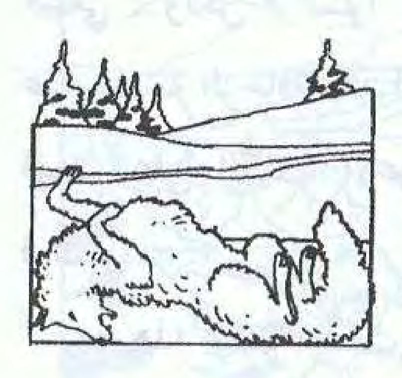
لطمة مؤلمة أو عضة جارحة ، وبعد دقائق غدا رأسه وكتفاه ملطخة بالدماء . حينئذ غيّر بوك طريقته الهجومية ، فكان يتظاهر بأنه يصوب أسنانه إلى عنق خصمه ، ولكنه يخفض رأسه ويحاول أن يصدمه معتمداً على ثقل وزنه ، فلم يستفد سوى بعض الجراح ، ولم تنطل حيلته على سبيتز .

كادت المعركة تشرف على نهايتها وقد ضيقت الكلاب الحلقة حول المتعاركين ، فبادر سبيتز إلى الهجوم ، وجعل يثب في كل اتجاه ، وبوك يدافع عن نفسه ، ولكن الهجمات المتتالية أذهلته ، فانزلق وكاد سبيتز يبطش به ، ولكنه نهض متأهباً .

كانت لبوك ميزة لا يعرفها سبيتز وهي أنه يستعمل مخيلته ، فابتكر أسلوباً جديداً في القتال ، وحينما اندفع إليه سبيتز لم يتلقه بجسمه بل تطامن له وأنيابه مُشرَعةٌ ، وأطبق فكيه على إحدى قوائمه فكسر عظامها .

ثم بادر إلى الهجوم وسبيتز الشجاع يدافع بثلاث قوائم ، وكرر بوك مناورته فكسر له قائمته الثانية ، فأدرك سبيتز هذه المرة أن نهايته قريبة ، وتغلب على آلامه ولكنه رأى العيون المحدقة به تزداد اقتراباً منه تتعجل نهايته ، لقد أصبح الآن الضحية ، ولا يتوقع الرحمة من بوك ، فاندفع بوك إلى خصمه وصدمه بكتفه فسقط أرضاً وهجمت عليه الكلاب تتناهشه ، ولم يَعفَّ عنه سوى بوك الذي ابتعد ورأسه مرفوع إلى العلاء .

الفصل الرابع



من الغد ، لاحظ فرانسوا وبيرو غياب سبيتز ، فقال فرانسوا وهو جاث يتفحص جراح بوك :

– لقد قلت لك إننا سنجد سبيتز ذات يوم أشلاء على الثلج .

فقال بيرو وهو يجس قوائم بوك :

– لا شك أن سبيتز قد قاتل كالشيطان المسعور .

– وبوك كعفاريت الجحيم ، كان لا بد لأحدهما أن يموت ، وهذا مؤسف ، لأن سبيتز زعيم طاقم ممتاز ، ولعل هذا أفضل ، فقد اختفى الشجار باختفاء سبيتز .

ولئن كان بيرو غاضباً لفقدانه قائد زحافته فقد استراح أيضاً من هذه المعارك التي لا نهاية لها . ونادى فرانسوا

الكلاب ، فاتخذ بوك مكان سبيتز على رأس الزحافة بشكل طبيعي ، ولكن فرانسوا كان عازماً على أن يجعل سوليك على مقدمة الزحافة لأنه أكثر مهارة وخبرة ، ولم يقبل بوك فهجم على الكلب الأعور يعضه ويأخذ مكانه ، فقال فرانسوا :

– هذا عظيم ! قتلت سبيتز وتريد أن تتعدى الآن على خليفته ؟

ورفض بوك أن يترك مكانه ، فأمسكه فرانسوا من فراء رقبته ورماه فوق الثلج وجعل سوليك مكانه . أما الكلب الأعور فلم يشأ أن يكون طرفاً في هذه المسألة وهو يعلم شراسة بوك ، فتنحى له عن مكانه ، فاحمرت عينا فرانسوا غضباً ، ومشى إلى الزحافة فجاء بهراوة ضخمة وصاح به :

– سأعلمك النظام أيها الشرس !



وحين رأى بوك الهراوة تذكر ذلك الرجل البدين الذي روضه ، وأدرك أنه غير قادر على مقاومة فرانسوا وهراوته ، فهرول مبتعداً ثم بدأ يدور حول الزحافة وهو ينبح ، ويحرص على أن يكون بعيداً عن ضربات الهراوة .

بدأ الرجلان يسرجان الزحافة ، وبعد أن ربطا الكلاب كلها ، استدعيا بوك إلى مكانه المألوف فأبى وتراجع إلى الوراء ، وظن فرانسوا أن الكلب خائف من الهراوة ، فرماها وناداه بصوت رقيق ، ولكن الكلب لم يكن خائفاً من العصا فحسب ، بل هو متمرد على الظلم الذي ألحق به ، لأنه يستحق منصب الزعيم بعد أن قتله في معركة عادلة ، وهذا حقه الذي لا يتنازل عنه .

حاول الرجلان ما بوسعهما للإمساك به فلم يستطيعا ، فكان لا يبتعد عن الزحافة كثيراً وكأنه يقول لهما إنه لا يأبى العمل بل يرفض أي منصب سوى منصب الزعيم . ونظر بيرو إلى ساعته غاضباً ، لقد هدَر وقتاً ثميناً ، وجلس على

الثلج وفرانسوا ينظر إليه ، ثم انفجرا ضاحكين ، فلا بد من الاعتراف بالهزيمة !

نهض فرانسوا وتوجه إلى سوليك ونادى بوك الذي كان يرقب المشهد باهتمام وهو يهز ذيله فرحاً ، ولكنه لا يقترب ، ولاحظ أن الحبل الطويل مكان قائد الزحافة فارغ ، وقال له بيرو :

– ارمِ هراوتك لأنه لا يصدقك !

فرمى هراوته ونادى بوك مرة ثانية ، فنهض الكلب بافتخار وهرول إلى مكان الزعامة .

ما إن ثُبتت الأحزمة حتى فرقع فرانسوا سوطه وجذبت الكلاب حبالها ، فتكسر الجليد تحت الزحافة ، وانطلقت بأقصى سرعتها .

في المساء أثبت بوك أنه جدير بمنصب الزعيم ، إذ فرض سلطته على الفور ، فالطاقم ينطلق كأنه كلب واحد ، ولم يتمرد سوليك أو ديف المولعان بجر الزحافة ، ولكن بقية

الطاقم كان قد اعتاد مخالفة الأوامر بتحريض من بوك أثناء صراعه مع سبيتز ، فأصيبوا بالدهشة للتبدل الطارئ على زعيمهم الجديد ، قد اعتاد بايك مثلاً أن يعمل بأقل ما يمكن من الجهد ، فدفعه الزعيم إلى بذل أقصى طاقته بأن هجم عليه وقعد فوقه بكل ثقله ، ومازال ينهشه بأسنانه حتى نبح مستغيثاً ، وقد ابتهج فرانسوا وبيرو للحالة السائدة ، وتبين لهما أن بوك يقوم بمهمته في المواقف الصعبة أفضل من المرحوم سبيتز على الرغم من أنه أحسن زعيم طاقم عرفه الرجلان في حياتهما المهنية الطويلة .

وحينما وصلا إلى منطقة (رنك) أضافا كلبين محليين إلى الطاقم ، فلم يلبث بوك أن علمهما أصول العمل وقواعد النظام بسرعة أذهلت الرجلين ، وقال فرانسوا :

– غير معقول ! لم أر في حياتي كلباً مثل بوك ، إن كلباً مثله يساوي ألف دولار ، وليست خسارة فيه .. ما رأيك يا بيرو ؟

فوافقه بيرو ضاحكاً ، لأنهما استدركا تأخير الأيام السابقة وتجاوزا الرقم القياسي السابق . ولا بد من القول إن الطقس كان ملائماً ، فقد ظل الطريق مستوياً جامداً ، ولم يسقط الثلج ، وبقيت درجة الحرارة ثابتة على عشر درجات تحت الصفر طول الرحلة ، وقطعا مسافة الثلاثين ميلاً في الإياب خلال اثنتي عشرة ساعة ، وهي التي قطعاها في الذهاب في عشرة أيام . وابتهج بيرو وهو يرى أنهما قد قطعا مرحلة الستين ميلاً دفعة واحدة ، ولاريب أن الكلاب قد ألفت هذا الطريق وعرفت منعطفاته ومنحدراته .

مساء اليوم الثالث وصلت الزحافة إلى قمة (وايت باس) ، ثم انحدرت في السهول المؤدية إلى البحر بسرعة لا تكاد تصدق ، فكانا يريان تحتهما أضواء السفن الراسية في الميناء .

خلال هذين الأسبوعين ، كان رقمهما القياسي أربعين ميلاً في اليوم ، ولم يستطع أحد تحطيمه إلا بعد زمن طويل .

حينما وصل فرانسوا وبيرو المدينة كانا يتجولان فيها متبخترين كالطاووس ، ويدعوهما أصحابهما إلى الطعام وقضاء بعض الوقت لعلهم يسمعون منهما حكاية هذه الرحلة العجيبة ، وكان طاقم الزحافة يستريح في حظيرة قريبة حيث تجمع الناس يتفرجون على هذه الظاهرة الرائعة .

بعد أيام صدرت الأوامر الرسمية بنقل فرانسوا وبيرو إلى ناحية أخرى من البلاد ، فودع الرجلان بوك وهما يذرفان الدموع ، ثم اختفيا من أفق بوك إلى الأبد .

الفصل الخامس



كان طاقم الزحافة مِلك الحكومة فنقلته إلى مصلحة البريد ، وأُسند إلى هندي خُلاسي وإسكتلندي ضخم رقبته كرقبة الثور ، وكانا يتنقلان على طريق داوسون مع عدد من الزحافات الأخرى .

لقد انقضى زمن الأرقام القياسية والحماسة المفرطة التي عُرف بها بيرو ، وإنما هي مصلحة البريد التي تنقل الرسائل .. هذا كل شيء . فالزحافة تسير على الطريق نفسه وتنقل الحمولة ذاتها تقريباً ، ولم يكن هذا ليمتع بوك ولكنه يؤدي عمله بدأب كما يفعل ديف وسوليك . وحرص بوك على أن تؤدي الكلاب عملها شاءت أم أبت بالحماسة ذاتها ، فكانت

الحياة رتيبة منتظمة كالساعة ، إذ ينهض الرجال مبكرين ، فيشعل بعضهم النار ، ويتناول الجميع فطور الصباح ، ثم يربط آخرون الكلاب إلى الزحافة ، ويطوي بعضهم الآخر الخيام . وتنطلق الزحافات قبل الفجر بنصف ساعة ، ولا تتوقف إلا في ظلام الليل ، فينصبون الخيام ويحتطبون ويشعلون النار ، أو يمهدون المراقد ويحملون الماء أو الجليد للطبخ .

وكان أهم حدث تنتظره الكلاب توزيع الطعام ، فإذا التهموا الأسماك تسكعوا في المخيم ساعة أو ساعتين فاشتبكوا فيما بينهم أو تعرفوا على الكلاب الأخرى .

وكان يجتمع على الدوام حوالي المائة كلب ، وقد دخل بوك معركة ضد ثلاثة منهم مجتمعين ، ففرض احترامه على الجميع وذاعت شهرته ، فإذا زمجر نافشاً فراء رقبته استكانت الكلاب وابتعدت مذعورة .

يقضي بوك وقته ممدداً أمام النار يتثاءب بارتياح ، فأي صور في عينيه الذهبيتين نصف المغمضتين ؟ لقد نسي الجنوب والقاضي ميلر والكلب الياباني القبيح ، ولم يعد يفكر إلا في مأكله وما ينتظره من طعام ، وقد محت غريزته المتوارثة كل أثر للكلب المتحضّر الذي كان ، ولم يعد كلباً مدلّلاً ، بل كلب عمل توفرت حواسه البدائية ونمت قواه الجسمانية ، وعادت به غريزته إلى طبائعه الوحشية التي أثارها حياته في الغابات الجليدية واتصاله بالحيوانات المتوحشة ، وحتى الناس كانوا يبدون له متوحشين ، وكان يتأمل الرجال من حوله فيتصورهم في غابر الدهور وقد طالت شعورهم وهم يحملون الهراوات يتلفتون مذعورين من ظلام الليل ، وحين ينام الهندي الخلاسي ويرتفع شخيره ، يفتح عينيه ويتثاءب وهو يدرك أنه لم يكن يحلم فعلاً .

كان نقل البريد عملاً مرهقاً للكلاب ، ولا يصلون إلى داوسون إلا في حالة مزرية يحتاجون معها إلى راحة حقيقية

تمتد من أسبوع إلى عشرة أيام ، ولكنهم لا يستريحون سوى أربع وعشرين ساعة ثم يستأنفون رحلتهم .

وكان الرجال أيضاً يعانون من هذا العمل الشاق ، فلا تراهم إلا معكري المزاج ينهالون على الكلاب بسياطهم لأتفه سبب . ومما زاد الأمر سوءاً أن الثلج لا يتوقف عن السقوط ، فثقلت حركة الزحافات .

إن الرجال يبذلون ما في وسعهم للعناية بالكلاب فلا ينامون قبل أن يفحصوا قوائمها ويعالجوها بحنان عظيم ، ولكن هذا لم يحل دون إرهاق الكلاب التي قطعت منذ بداية الشتاء ألفاً وثمانمائة ميل تجر الزحافات الثقيلة التي هدت قواها ، وقد أصاب النحول بوك وذبل عوده ، ولكنه يقوم بكل طاقته ويفرض النظام على الطاقم كله . وأما بيلي اللطيف فقد كان مشرفاً على الهلاك ويئن طوال الليل من العياء ، وأصبح سوليك خشن الطباع لا يُطاق . وكان ديف أكثر الكلاب إرهاقاً ، وأصيب بمرض لم يعرف الرجال سبباً

له ، وساءت طباعه ، فإذا حان وقت النوم حفر مرقده ونام حتى اليوم التالي ، فيأتيه الاسكتلندي بطعامه إلى حفرته وقد أقلقه ما يعانيه من آلام .

لفتت حالة ديف انتباه الرجال جميعاً وعزموا على تفحصه ليعرفوا سبب مرضه ، فجاؤوا به إلى جانب النار فلم يجدوا في جسمه جرحاً أو كسراً ولكنه يتألم إذا لمسوه .

بعد أيام ضعف ديف ضعفاً شديداً وكان ينهار حيناً بعد الآخر وهو يجر الزحافة ، ففك الاسكتلندي أحزمته ووضع مكانه سوليك الأعور ، فنبح نباحاً عالياً وكشر عن أنيابه ليعود إلى مكانه ، ولكن الرجل ربطه وراء الزحافة ليريحه ، فإذا به يهاجم سوليك ويعضه على الرغم من ضعفه ، فلسعه الرجل بسوطه لسعات خفيفة لئلا تؤذيه ، ولكن حبه لجر الزحافة تغلب عليه ورفض أن يجري وراءها ، وانتهى به الأمر إلى أن سقط على حافة الطريق والكلاب تمر بجانبه ،

فتحامل على نفسه وهرول حتى لحق بالزحافة أثناء توقفها للاستراحة .

بعد الاستراحة صاح الاسكتلندي بالكلاب لتنطلق ولكنها ظلت مكانها لا تتحرك ، فنادى أصحابه ليعرفوا السبب ، وإذا ديف قد قطع الحبل الذي يجره سوليك ووقف مكانه وعيناه الحزينتان تتوسلان إلى الرجل بأن يربطه إلى الزحافة . ولم يدر الاسكتلندي ما يفعل ، ولكن أصحابه أكدوا له أن الكلب قد يموت من الحزن إذا حرم من مكانه في الزحافة ، وجعلوا يروون له أحداثاً شهدوها ونصحوه بأن يشفق على الكلب ويدعه يموت وهو يجر الزحافة كما يتمنى ، فأعاده الرجل إلى مكانه ، فجعل يجر الحبل بما بقي من قوته ، ولكنه سقط عدة مرات ، وفي كل مرة ينهض وهو ينبح من الألم ويتابع عمله .

ظل على هذه الحالة حتى المساء ، وهو يبذل جهداً يائساً ، ومدده الاسكتلندي بجانب النار ، وفي الصباح لم يقو

ديف على السير وتحامل على نفسه ولكنه هوى وقد شلت قائمتاه الخلفيتان .

وحينما ربطت الكلاب إلى الزحافات واستأنفت المسير ، جرّ ديف نفسه عدة أمتار ليلحق بها وهو ينبح نباحاً حزيناً ، فضرب الاسكتلندي الكلاب بسوطه فجرت تهرول مبتعدة عنه ، ولكنه أوقفها بعد مئات الأمتار ورجع إلى ديف حاملاً بندقيته وأطلق النار عليه ، وعاد والكآبة تغمر ملامحه .

ولكن بوك والكلاب الأخرى أدركت كل ما جرى .

الفصل السادس

وصلت زحافات البريد من (سالت ووتر) إلى (شاغوي) بعد ثلاثين يوماً منذ انطلاقها من داوسون ، وكانت الكلاب تعرج كلها من الإرهاق ، وفقد بوك خمسة عشر كيلو غراماً من وزنه ، ولم يعد لكثير من رفاقه قيمة تذكر ، حتى بايك الذي كان يتظاهر بالعرج فقط ، كان يجر قوائمه جراً ، وكذلك سوليك فليس الأمر تعباً عارضاً ولكنه إرهاق متطاول أحست به الكلاب في عظامها ولا تزيله ساعات قليلة من الراحة .

لقد قطعت الكلاب خلاله خمسة أشهر ألفين وخمسمائة ميل ، وما إن وصلت إلى شاغوي حتى كانت لا تقوى على

تجنيب الزحافة المرور في المنحدرات ، ولكن الاسكتلندي الذي لا يقل عنها تعباً يشجعها قائلاً :

– هيا يا أولاد ، لقد وصلنا ، وسوف نستريح راحة دائمة .

والحق أن الرجال كانوا يجرون بمزالجهم أمام الزحافات يمهدون الطريق أو يدفعونها من الخلف في المرتفعات ، وكان عليهم أثناء الاستراحة أن يجهزوا الطعام لهم ولحيواناتهم .

إن الرسائل التي يرسلها آلاف الباحثين عن الذهب في كلونذايك تشكل تلالاً ثقيلة من الورق ، ولا تقبل الحكومة أي تأخير في موعد وصولها ، ومعنى ذلك أنها تفضل أن تموت الكلاب وتعوضها بكلاب مستريحة عند الوصول ، وقد بيعت الكلاب جميعها .

في اليوم الرابع من وصول البريد لم يكن بوك ورفاقه قد استعادوا قوتهم ، وقد اختار هذه اللحظة اثنان من الأميركان

لشرائهم جميعاً بمعداتهم .. ودفعوا فيها ثمناً بخساً فأصبح بوك ملكاً لشخصين اسمهما هال وشارل .

وشارل هذا رجل كهل عيناه دامعتان وله شارب صغير فوق شفتين مقلوبتين غليظتين . وأما هال فهو شاب في التاسعة عشرة ، ويبدو عليه حب القتال ، فلا يخرج إلا ومسدسه يتدلى على جانبه الأيمن وسكينه المرصع باللآلئ على جانبه الأيسر .

ماذا يفعل هذان الرجلان في أقصى الشمال ؟ لا أحد يدري . وحينما رأى بوك قطع النقود اللامعة تنتقل من يد إلى يد أدرك بيسر أن الاسكتلندي سوف يختفي من حياته كما اختفى فرانسوا وبيرو من قبل ، فتتبع الرجلين طائعاً إلى مخيم في حالة فوضى ، ولمح امرأة جميلة شعثاء الشعر تدخل الخيمة وتخرج منها عدة مرات . كان اسمها مرسيدس ، وهي أخت هال وزوجة شارل . تأمل بوك هذا الثلاثي يطوي

الخيمة والمرأة ترمي الأمتعة في السلال بلا نظام ، وتثير أثناء ذلك كثيراً من الضوضاء وتصدر أوامرها إلى الرجلين .

قال أحد الجيران من المتفرجين مخاطباً الأمريكيين :

– لو كنت مكانكم لما حملت الخيمة لأن زحافتكم ثقيلة .

فتصدت له المرأة الحسناء قائلة :

– وكيف تريدنا أن ننام ؟ هل ننام في العراء ؟

فقال :

– طبعاً لأن الربيع مقبل وقدانقضى فصل البرد .

فأطلقت المرأة ضحكة ساخرة ، ولم يجبها الرجل .

أثناء ذلك استطاع الرجلان أن يحزما هذه التلة من الأمتعة ، وسأله أحد المتفرجين :

– هل تظن أن الأمتعة مربوطة جيداً ؟

فقال شارل وهو يرمقه :

– ولِمَ لا ؟

ثم انصرف إلى ربط أحزمة الكلاب ، فقال متفرج آخر :

– هل تظن أن الكلاب قادرة على جر هذا كله اثنتي عشرة ساعة متواصلة ؟ .

فقال بصوت هادئ :

– هذا ما آمله .

ثم أمسك سوطه بيد ومقود الزحافة بيد أخرى وفرقع سوطه وهو يصيح :

– إلى الأمام !

ولكن الزحافة لم تتحرك ، فرفع سوطه وهو يصرخ فيها :

– هيا يا عصابة الكسالى ..

ولكن سارعت إليه أخته وأمسكت يده التي تحمل السوط وقالت والدمع يسيل من عينيها :

– لا يا هال ، لا تضرب هذه الحيوانات البائسة ، عدني ألا تضربها طول الرحلة وإلا فسأبقى هنا ..

– حقاً ؟ إنها كلاب كسولة وأنا خبير بقيادة الزحافات ، ولا يرهبها سوى فرقعة السياط ، ولا أظنك قادرة على منعي .

فانخرطت أخته في البكاء ، فتدخل أحد المتفرجين قائلاً :

– اسمع نصيحتي يا فتى ! إن كلابك ليست كسولة ولكنها خائرة القوى ويلزمها راحة طويلة ، ألا ترى أنها غير قادرة على النهوض ؟

وزمجر هال :

– وماذا أيضاً ؟

ثم رفع سوطه وألهب الكلاب واحداً تلو الآخر ، فشدت الحبال ولكن الزحافة لم تتحرك .



تقدمت مرسيدس إلى زعيم الزحافة بوك وطوقت عنقه بيديها ، فأحس بالفرحة لهذا الحنان ، وقالت له والدمع في عينيها :

– هيا يا عزيزي ، لماذا لا تريد الانطلاق ؟ هل تفضل ضرب السياط ؟ هيا .. لا تكن شريراً وافعل هذا من أجلي .

وكان المتفرجون يمسكون خواصرهم من الضحك إلا واحداً منهم ظل ساكتاً ، ثم بادرهم قائلاً :

– ألا ترى يا فتى أن الزحافة قد تجمد فوقها الثلج ولا بد لك أن تدفعها لتحررها منه ، حرّك المقود يميناً وشمالاً لكي تفك الزحافة ، والحق أنه لا يهمني أمرك ولكني أقول هذا من أجل الكلاب البائسة .

على الرغم مما انتاب هال من غضب فإنه اتبع هذه النصيحة فتحركت الزحافة ، ولم تكد تقطع مائة متر حتى واجهت منعطفاً قوياً فانقلبت بما فيها ، وأحست الكلاب بالقهر لرعونة السائق ، فانطلقت بأقصى سرعتها وهي تجر الزحافة المقلوبة بين الشوارع . وقد اعترضها هال ليوقفها ولكن علقت قدمه بأحد الحبال فمرت الكلاب كلها فوقه فرحة ، وتحاشى الزحافة في اللحظة الأخيرة ، وسارع بعض أهل الخير إلى إيقاف طاقم الكلاب ومساعدة هؤلاء الأميركان على تجميع أمتعتهم المتناثرة ، ونصحوهم بأن

يخففوا من حملهم ويزيدوا من عدد كلابهم ، وقد قبل هال وشارل ومرسيدس هذه النصيحة صاغرين وأجّلوا الرحيل إلى اليوم التالي .

وقف الناس يتفرجون عليهم ويطلقون النكات ، فقال أحدهم :

– هل تريدون أن تفتحوا فندقاً بهذه الأغطية كلها ؟ ثلاثة منها تكفي .

وقال آخر :

– هل تديرون مطبخاً بكل هذه الأواني ؟ أم أنكم تسافرون في الدرجة الأولى من قطار ؟

وحين اقتنع الأميركان بالاستغناء عن بعض الثياب أبت مرسيدس أن تتخلى عن ثوب واحد من ثيابها وآثرت أن تبقى على أن ترحل بدونها ، ولكنها غضبت من استهزاء الناس بها فرمت نصف ثياب الرجلين ولم تفرط بثوب من

ثيابها ، وحين انتهت هذه العملية تخلصوا من نصف الأمتعة وظلت مع ذلك ثقيلة متراكمة .

عزم هال وشارل على شراء كلاب أخرى ، فاشتروا أول ستة كلاب رأوها معروضة للبيع ، فكان طاقم الزحافة خليطاً متنافراً من الكلاب ، فيها الإسباني والبريطوني[1] والهجين والمجهول أصله ، بالإضافة إلى طاقم كلاب البريد الذي اشتروه أولاً .

ولا ريب أن الكلاب قد روّضت حين وصولها إلى البلدة ، ولكن بوك لم يستطع أن يعلمها ما يجب عليها عمله إذ أذهلتها المعاملة القاسية التي لقيتها ، وما ظنك بهذه الحثالة من الكلاب حين أضيفت إلى طاقم كلاب البريد الذي قطع رحلة متواصلة مسافتها خمسة آلاف وخمسمائة ميل ؟

1 – بريطونيا : إحدى المقاطعات الفرنسية .

كان الزهو بادياً على الرجلين وهما يتأملان الأربعة عشرة كلباً التي يتألف منها طاقم الزحافة ، فمن النادر أن يستخدم أحد هذا العدد من الكلاب في جر زحافة واحدة ، ولم يدركا أنه يستحيل عليهما إطعام هذا العدد من الكلاب أثناء الرحلة ، ولكنهما قاما بحسابات معقدة حول هذه الرحلة وطول مسافتها والمؤونة اللازمة لها وهَزِئا بالنصائح التي أسداها إليهما الناس .

مهما يكن الأمر فقد انطلقت الزحافة بعد أن تقدم النهار في طريقها إلى داوسون ، وحين أدرك بوك ذلك انتابه يأس شديد ، ولم تفهم الكلاب الجديدة ما يراد منها ، فكانت ترتجف تحت لسعات السياط ولا تبادر إلى شيء ، وأما كلاب الطاقم القدماء فسرعان ما عرفت أنه لا يمكن الوثوق بهذين الرجلين لافتقارهما إلى الخبرة .

حلّ الظلام وتوقفت الزحافة ، فقضى الرجلان شطراً من الليل في إقامة المخيم ، ومع طلوع الصباح انطلقت الزحافة

متعثرة لأن الأمتعة كلها كانت تترنح يمنة ويسرة ، فيضطر إلى التوقف وإعادة حزمها ، فكانا يقطعان في بعض الأيام عشرة أميال أو يؤجلان الرحلة إلى الغد .

ولم يقدرا على قطع نصف المسافة التي خططا لها من قبل ، وتبين من حساباتهما العملية المعقدة أن نصف المؤونة قد نفد ، وزاد الطين بلة أن هال الغبي أراد أن يزيد من سرعة الكلاب فزاد من نصيبها من الطعام . وكانت مرسيدس العطوف تسرق الأسماك وتطعم الكلاب سراً رفقاً بها وعطفاً عليها . وحين أدرك هال أن نصف المؤونة قد نفد قبل أن يقطع ربع مسافة الرحلة اتخذ قراراً حازماً بالتقتير في إطعام الكلاب وزيادة ساعات المسير ، فساءت صحة الكلاب لنقص الطعام . وكان (دوب) مجروحاً في كتفه ولكن هال " العارف بطبائع الكلاب " أهمله ، فأنتن جرحه وانتفخ ، فاضطر إلى إطلاق الرصاص عليه . ثم مات الكلب الأبيض وتبعه ثلاثة كلاب صيد أخرى ، ولم يدر سبب موتها ، ومن

عشرة الكلاب الباقية قاوم الكلبان المجهولا الأصل مدة ثم لقيا المصير البائس نفسه .

وانقلبت الرحلة الرومانسية التي قرأ عنها هؤلاء الرحالة الثلاثة في الكتب إلى عذاب متواصل ، ولم تكن عزيمتهم من القوة مثلما هي عزيمة رجال الشمال الأشداء الذين مَرَنُوا على مواجهة الصعاب ، وكفت الحسناء مرسيدس عن محاباة الكلاب والدفاع عنها فانهالت السياط تلهب جنوبها ورؤوسها ، واشتبكت في شجار مع زوجها وأخيها ، فإذا تعبت اشتبك الرجلان فيما بينهما .

وكانت المرأة المدللة تظن نفسها أتعس المخلوقات لأن الرجلين لا يخضعان لنــزواتها ، ونال منها التعب فتوقفت عن السير وقررت أن تركب فوق الزحافة ، فأضافت خمسين كيلو غراماً إلى وزن الأمتعة .

ولما لاحظ الرجلان أن الكلاب لا تكاد تقوى على جر الزحافة ، أمسكا بالمرأة وأنزلاها بالقوة عنها ، فجلست على

الثلج ورفضت أن تمشي مهما كلفها الأمر ، فتركاها في مكانها وقد حسبا أنها ستخاف البقاء وحدها وتسارع إلى اللحاق بهما ، فتظاهرا بالابتعاد عنها وتوقفا بعد ثلاثة أميال ينتظران قدومها .

أقبل الظلام فاضطرا إلى العودة والمجيء بها ، وكانت جالسة تنتظرهما في المكان نفسه وقد تجمدت أطرافها وهي ترتعد كأنها قديسة تضحي بنفسها ، وتابعت الرحلة فوق الزحافة .

حينما وصلت الزحافة إلى (فايف فينغرس) وهي منتصف الطريق كانت مؤونتهم من الأسماك قد نفدت تماماً ، واستطاع هال أن يعثر على مضرب هنود في الطريق ، وبعد جدال طويل اشترى من عجوز شمطاء عدة كيلو غرامات من جلد حصان مجمّد كان قد غطس قبل ستة أشهر في الثلوج ، ولم يحصل عليه إلا مقابل مسدسه الذي يفخر به وبقيت معه سكينه .

كانت الكلاب المهزولة على أحسن حال ، وبوك نفسه يتحامل على نفسه ولا ينهض إلا تحت لسعات السوط ، وفقد فراؤه لونه اللامع وأصبح أشعث قد تجمدت فوقه الوحول والدماء ، وأما الكلاب الأخرى فكانت حالتها مزرية ، وأنى لهذه الحيوانات الناحلة التي أصبحت جلداً على عظم أن تجر زحافة مثقلة بالأمتعة ؟ يضاف إليها مرسيدس الحسناء ملتفة بفرائها الثمين .

من الطاقم القديم مات بيلي الوديع أولاً ، ولم يكن لدى هال مسدس فضرب رأس الكلب البائس بفأسه ، وكان هذا درساً للكلاب الستة الباقية .

من الغد حان أجل (كونا) ، ولم يبق من الأربعة عشر كلباً سوى خمسة : جو الذي أنساه التعب مشاكسته ، وبايك الذي يعرج ولا يتألم ، وسوليك الأعور الذي يجذب الحبل وقد انهارت قواه ، و (تيك) الذي كان في النـــزع

الأخير ، وأما بوك الذي كان ظلاً لذاته فكانت أذناه تطنان بأصوات غريبة ولا يرى أكثر من بضعة أمتار أمامه .

لم تر الكلاب مطلعَ ربيعٍ مثل هذا الذي حلّ عليهم ، فالفجر يطلع حوالي الساعة الثالثة ، ويبقى الضوء ساطعاً حتى التاسعة مساءً ، ولكن الرجلين والكلاب لم يبصروا شيئاً من هذا .

كانت الطيور المهاجرة تحلق في السماء وبراعم الأشجار تمد أفواهها إلى الشمس ، والبط البريّ يرتفع عالياً وهو يصيح ، والطيور تنقر الأشجار في الغابات ، إنها نهاية الشتاء .

وأما الجداول والأنهار المتجمدة فقد بدأت تتواثب فوق الصخور تهمس لها بالحنين ، ونهر (يوكون الكبير) ينفض على سطحه ثقل الكتل الجليدية ، وكل ذلك جعل الرحلة تزداد خطراً يوماً بعد يوم دون أن تدرك مرسيدس الحسناء ذلك ، أو ينتبه إليه هال وشارل .

وصل هذا الموكب الكئيب إلى (وايت ريفر) ، وهناك وجد مخيماً لرجل يدعى جون تورنتون . فارتمت الكلاب في أعنتها ميتة من العياء .

كفكفت مرسيدس الدمع من عينيها الجميلتين لتتفحص تورنتون ، وجلس شارل على جذع شجرة حذراً وعظامه تؤلمه ، وتكفل هال الشهم بالذهاب للقاء ساكن هذا المكان .

كان جون تورنتون يقطع بسكينه الأغصان الصغيرة عن غصن كبير ليجعل منه مقبضاً لفأسه ، فرفع نظره إلى الوافد ثم عاد إلى عمله ، وكان لا يجيبه إلا بكلمات مختصرة ، فطالما صادف مثل هؤلاء الرحالة الأغرار الذين لا ينتفعون بنصائحه ، ولكنه لم يبخل بها على هال ، وحذره من حالة الجليد وخطرها عليهم ، فأجابه هال بمرح :

– لقد حذرونا من قبل وزعموا أننا لن نصل وايت ريفر أبداً ، وها نحن قد وصلناه !

فقال تورنتون :

– هذه ضربة حظ ، لو أُعطيتُ ذهب ألاسكا كله لما خاطرت بالسفر في مثل هذه الأيام .

فقال هال مفتخراً :

– لقد عزمنا على الوصول إلى داوسون وسوف نصلها وإن وقفت شياطين الأرض في طريقنا .

ثم مضى إلى زحافته وفرقع سوطه في الهواء وهو يصرخ :

– هيا يا بوك .. تحرك أيها الكسول !

وتابع تورنتون عمله ولم يجبه . وتلوّت الكلاب تحت لهيب السياط ، ولم تكن قادرة على الحركة ، وعض تورنتون شفته وهو يرمق ما يحدث بطرف عينه .

نهض سوليك أولاً متألماً ثم تبعه جو وهو يئن ، وسقط بايك مرتين ثم وقف على قوائمه ، أما بوك فقد ارتمى بطوله على الثلج يلهث لهاثاً متقطعاً مغمض العينين غير مبال بلسع السياط .

منع تورنتون عدة مرات نفسه من التدخل ، ولكنه كان يتمشى جيئة وذهاباً وهو يرقب هذا المشهد ، واحمرّ وجه هال من الغضب ، فرمى سوطه وأمسك هراوة ضخمة وانهال بها على خاصرتيّ بوك الذي لم يتحرك ، وكأن غريزته دعته إلى الموت في مكانه ، لأن تحطم الجليد تحت قوائمه أنذره بالخطر الداهم .

فجأة اندفع تورنتون إلى هال وانتزع الهراوة من يديه ولطمه لطمة تصرع ثوراً ، وأطلقت مرسيدس صرخة حادة ، ومسح شارل عينيه الدامعتين ، وأما هال الذي أذهلته الصفعة فكان يمسح الدم عن أنفه وهو ينظر إلى تورنتون الذي كان يُتأتئ من الهياج ، وصاح أخيراً :

– إذا لمست هذا الحيوان مرة ثانية قتلتك .. أسمعت ؟

فأجابه هال :

– إنه كلبي ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك ، وإلا حذار !

ثم استل سكينه واندفع إلى تورنتون .

وجدت مرسيدس تلك اللحظة ملائمة لكي يغمى عليها ، فغابت عن الوعي بين يدي أخيها وهي تصرخ صرخات عالية ، فضرب تورنتون يد هال وأخذ سكينه وجعل يقطع حبال بوك . وأما هال فكان لا يدري هل يعتني بأخيه أم يهجم على تورنتون ، وقدّر أن بوك ليس سوى كلبٍ هالكٍ لا يستأهل أن يقاتل من أجله .

ولم تمض دقائق حتى كانت أربعة الكلاب الباقية والأميريكيون الأربعة قد ابتعدوا عن المخيم ودخلوا الجليد المتجمد فوق النهر .

وظل بوك ممدداً في مكانه ، ولكنه رفع رأسه ينظر إلى الزحافة يبتعد بها رفاقه القدامى ، وجثا تورنتون يجس بيديه الضخمتين أعضاءه ليرى ما إذا كان قد كسر عظم من عظامه ، فلم تقع يداه إلا على الجراح والندوب وجسدٍ أنحلته الخطوب .

أثناء ذلك كانت الزحافة تتقدم بطيئة فوق الجليد ، ولم تقطع ربع ميل حتى انهار الجليد تحت ثقلها وغرقت الكلاب وتبعتها الزحافة ، وارتمى هال لينقذ نفسه ، وحاول شارل أن يساعد مرسيدس ، ولكن أطبقت على الجميع قطع الجليد ، فأطلقت مرسيدس صرخة هائلة وصل صداها إلى كوخ تورنتون ، فنظر الرجل والكلب إلى مصدر الصوت ، وقال تورنتون :

– يا للمصير البائس !

ولعق بوك يد الرجل .

الفصل السابع



السنة الماضية تجمدت قدما تورنتون فاضطر إلى البقاء في الكوخ حتى يبرأ ، وكان شفاؤه بطيئاً ، على حين مضى أصحابه لقطع الأشجار ورميها في تيار النهر حتى ينقلها إلى داوسون .

كان تورنتون يعرج عرجاً خفيفاً ولكن الطقس الدافئ يبشر بشفائه العاجل ، وأما بوك فإنه يقضي أيامه الآن ممدداً تحت أشعة الشمس يأكل بشراهة الغول ، ويتجول في الغابات التي استعادت حلتها الخضراء أو يعوم في غدران الماء الساكنة . إنه باختصار يعيش حياة أحد الباشوات التي يستأهلها حقاً ، أفلا يكون له الحق في الراحة بعد قطع خمسة آلاف ميل جرياً فوق الثلوج مربوطاً إلى زحافة وزنها نصف

طن ؟ وقد استغل بوك ما قدمه إليه تورنتون الذي يتجول مثله في الغابات ومعه كلباه (سكيت) و (نيج) .

كانت (سكيت) كلبة صغيرة من عِرْق إيرلندي تحب الماء ، ذات فراء طويل ناعم ، أظهرت منذ البداية كثيراً من الود تجاه بوك الضخم ، فعمدت إلى لعق جراحه كما تفعل الممرضة الماهرة ، وتحسنت صحته فكان حنينه إلى هذه العناية لا يقل عن حنينه إلى مداعبات تورنتون الودية .

وأما (نيج) فهو كلب أسود اللون هجين متحفظ بطبعه ، ولكنه ودودٌ شديدُ المرح ، وسرعان ما انعقدت الصداقة بينه وبين هذين الكلبين ، ولم يجد سبباً لأن يفرض هيبته عليهما ، واندمج في ألعابهما يلهو معهما كأنه جرو صغير .

تبدلت حياة بوك تماماً ، وعرف للمرة الأولى محبة السيد وحنانه ، ولا ريب أنه قد عرف في حياته السابقة عطف القاضي ميلر عليه ، وكان يبادله هذا العطف بالحب

والاحترام ، ولكن تورنتون بالإضافة إلى أنه أنقذه من الموت كان رجلاً عليماً بطبائع الكلاب ، يربطه إليها وثاق من المحبة ، فيربت على فرائها بيد حانية تكفيها لأن تكون سعيدة النهار بطوله .

وكان تورنتون يجعل رأس بوك بين كتفيه الواسعتين ، ويهزه هزاً خفيفاً وهو يخاطبه بأطيب أسمائه متودداً إليه ، فيحس الكلب بشلال من السعادة ينهمر فوقه ويحمله إلى دنيا بعيدة ، ويظل ساعات طويلة يترقب حركات سيده ، ويهرّ هريراً خافتاً يجذب به انتباه سيده إليه ، وأما تورنتون فقد أحب بوك الذي استعاد بهاءه وجمال فرائه ولمعان عينيه الذكيتين ، وكان يصغي إلى هريره يتردد في حنجرته ويقول :

– والله لا ينقصه سوى الكلام !

وقد يعصف الوجدان ببوك أحياناً ، فيأخذ يد صاحبه بين أسنانه ويعضها عضاً شديداً حتى يدميها شوقاً ، فينتزع

الرجل يده وهو يلعنه ، ولكن بوك يحس بنغمة المودة في لهجته .

وبلغ الذكاء ببوك أنه إذا رأى سكيت تضع رأسها في راحة سيدها ، أو أبصر نيج يريح رأسه على ركبته ابتعد عنه يبثه أشواقه .



لبث بوك زمناً طويلاً لا يحول ناظريه عن سيده ويلاحقه حيثما سار ، وقد سكنه هاجس الخوف من فقدانه ، فلطالما فقد سادة له من قبل ، وعلى الرغم من هذا الجزع الدائم الذي أعاده إلى حياة الحضارة ، فإن غرائزه الوحشية كانت قد أيقظتها معاشرته للكلاب الشرسة .

صحيح أن مخيم تورنتون المكان الأقدس للسعادة وملعب رفيقيه سكيت ونيج .. ولكن ما تزال هناك أشياء يفتقدها . لقد علموه المكر والسرقة والعنف والصراع من أجل الحياة ، وكل ما يملكه السيد محرم عليه ، وما عداه مباح لا يناله إلا بمعركة شعارها النصر أو الموت .

حينما تأكد لبوك أنه لن يفقد هذا السيد ، جعل يتجول في الغابة ويدخل المعارك الدامية ، أو يعود مملوء البطن مما صاده فيها ، ويحس بأعماقه بنداءات وحشية تدعوه إليها ، فيجري في الغابة بأقصى سرعته وهو يشعر أنها ميدانه ومجال صيده ، ثم يتوقف ويرفع خطمه يتشمم الريح المقبلة عليه من

الأراضي البعيدة قبل أن يعود إلى سيده المحبوب بكثير من الأسف .

إن حب الانسان أو حب هذا السيد بالضبط يدفعه إلى العودة أدراجه ، وأن يدير ظهره إلى الغابات العميقة التي تناديه بصوتها المتسلط على حواسه ، فيعود .

يعيش الآن في المخيم هانس وبيتر صديقا تورنتون بعد أن أنهيا عملهما ، وقد تعرفا إلى بوك بعد عناء طويل ، إذ رفض أن يدخلا الكوخ ، ولكن تورنتون أفهمه بشيء من العنف أنهما جزء من عائلته ، فأصبح يتقبل تَرْبِيْتهما على فرائه ويلبي أوامرهما دون أن يحس بالحب نحوهما . فتورنتون وحده هو سيده المحبوب .

ذات مساء جلس الرجال الثلاثة ومعهم الكلاب فوق صخرة عالية تشرف على النهر بارتفاع مائة متر وهم يدخنون والكلاب مستلقية ، ولكن بوك لا يرفع بصره عن سيده ينتظر أمراً منه ، وتأمل تورنتون الكلب بوك وخطرت

له فكرة أراد أن يُذهل بها صاحبيه ويبين سلطته المطلقة على كلبه ، فقال مخاطباً هانس وبيتر :

– ستريان شيئاً تدهشان له .

ثم أشار بإصبعه إلى الصخرة العالية وصاح :

– بوك .. اقفز !

ولم يكد ينهي كلمته حتى نهض الكلب مندفعاً نحو الهوة السحيقة ، فأطلق تورنتون صرخة واستطاع أن يمسك بالكلب في آخر لحظة ، وساعده صاحباه على ذلك . وقال هانس وهو يلهث :

– هذا مزاح ثقيل لا يليق بك .

فقال تورنتون :

– نعم .. وأعترف لكما بخطئي .

ولكن شعوراً بالفخر قد اجتاحه .

وقال له بيتر :

– ويل لمن يفكر بمهاجمتك ، فلن يبقى منه سوى حذائه .

وكأنما تنبأ بيتر بما سيحدث .

في نهاية العام ذهب الثلاثة إلى (سيركل سيتي) وجلسوا ذات مساء في المقهى ، ولكن اختلف بعض الحمقى بجوارهم حول لعبة الورق ، واحتد بورتون المعروف بشراسة أخلاقه ، وأساء إلى أحد الباحثين عن الذهب من زملائه ، وتدخل تورنتون ليفض النـــزاع بالحُسنى ، ولكن التفت إليه بورتون ولكمه لكمة أطاحت به .

واقشعرت أبدان رواد المقهى وهم يسمعون نباحاً عالياً وقذيفة تمرّ فوق رؤوسهم وتعبر دخان المقهى . إنه بوك الرهيب وقد اندفع لنجدة سيده . وحاول بورتون أن يحمي وجهه بقبضتيه ، ولكن أسنان بوك مزقت يده وانغرست في عنقه وتسايلت دماء الرجل . فصرخ تورنتون بالكلب يستدعيه إليه فلبى نداءه وأنقذ الرجل من الهلاك الأكيد ، وكان بوك نافشاً فرائه مكشراً عن أنيابه ينبح نباحاً عالياً

يريد أن يقضي قضاء مبرماً على الرجل الذي اعتدى على سيده المحبوب .

اجتمع عمال المنجم في " مجلس " للحكم في القضية وقرروا أن هجوم بوك أمر مشروع ، وهنؤوا تورنتون على حيازته لمثل هذا الكلب الوفي الذي ذاعت شهرته منذ تلك الليلة لدى الحطابين وعمال المناجم في المنطقة كلها .

في شهر كانون الأول غادر الرجال الثلاثة (سيركل سيتي) ، ونزلوا إلى النهر الذي فاض بمياه الأمطار ، ووجدوا أنفسهم وسط تياراته الخطرة المتدافقة ، فكان بيتر وهانس واقفين على الشاطئ وقد أمسكا بحبل مربوط إلى القارب يجرانه من شجرة إلى شجرة ، على حين كان تورنتون يوجهه بعصا طويلة ، وبوك واقف على الشاطئ يرقب حركات سيده بثقة وانتباه .

وفجأة تعثر القارب بجذع شجرة ، فاصطدمت مقدمته بصخرة وسط التيار وانقلب بتورنتون ، فرمى بوك بنفسه في

اللحظة ذاتها وسبح نحو سيده حتى وصل إليه فأمسك بذيله بيد قوية وعاد الكلب إلى الضفة ، ولكن اشتد التيار وأنهك قواه والصخور المسننة تقترب منهما أكثر فأكثر ، وأصوات الصخور التي يدحرجها التيار تعلو على هتافات التشجيع التي يطلقها هانس وبيتر . وكاد الرجل والكلب يختفيان في الماء حينما ساعفه الحظ فتمسك بصخرة بكل قوته ، فتنفس بعمق واستجمع شجاعته ، ثم أفهم الكلب أن عليه الرجوع إلى الضفة حيث يقف صاحباه ، فأبى الكلب أن يغادره ، ولكن إصرار سيده دفعه إلى مقاومة التيار والسباحة حتى وصل الضفة ، فعقد الرجلان حول كتفيه أنشوطة حبل طويل ، فأدرك الكلب ما يراد منه ، فعاد من ذات نفسه إلى التيار باتجاه تورنتون ، ولكن التيار قذفه بعيداً عنه وخارت قوى الرجل ، وكاد الكلب يغرق ، فجذبه الرجلان إليهما وانطرح على الأرض بلا حراك ، وتعالت صرخات تورنتون طالباً النجدة ، فكأنها مست روح الكلب فانتفض واقفاً وقد

عادت إليه الحياة ورمى نفسه في الماء مرة ثانية ، واستطاع الرجل أن يمسك بالحبل ، وجذب الرجلان الكلب وتورنتون معاً إلى الشاطئ .

وأسعف الرجلان تورنتون حتى عادت إليه قوته ، فكان أول شيء فعله ، أن تفقد بوك بعد أن أشعل صاحباه النار ، وما زال يفرك أنفه وأطرافه حتى دبت فيه الحركة وفتح فمه ولعق يد سيده الذي أنقذه ، وهو يحس بسعادة كبرى على الرغم من أن ثلاثة من أضلاعه قد تكسرت .

في ذلك الشتاء أنجز بوك عملاً بطولياً آخر قد يقل عظمة عما فعله ولكنه أفاد الرجال الثلاثة إفادة مالية جعلت مصيرهم مرتبطاً بمصير بوك . لقد اعتاد الباحثون عن الذهب في ألاسكا أن يترددوا إلى مقهى يدعى (إلدرادو) حيث يلتقون بأصحابهم ويتبادلون الأخبار ويتحدثون عن إنجازات كلابهم ويبالغون في وصفها ، فيقول أحدهم :

– أتعلمون أن كلبي قادر على جر ثلاثمائة كيلو غرام وحده ؟

وكانت هذه نصف كذبة . ويجيبه آخر وهو رجل ثري يدعى ماتوسون :

– أما كلبي فإنه يجر ثلاثمائة وخمسين كيلو غراماً .

ويهزأ به الأول قائلاً :

– ثلاثمائة وخمسين ؟ لِمَ لا تقول خمسمائة ؟

فتدخل تورنتون قائلاً :

– أين الغرابة في هذا ؟ إني متأكد أن كلبي بوك يجر نصف طن .

فضحك الثري وقال :

– حقاً هذه كذبة واضحة .

فقال تورنتون بهدوء :

– لي الشرف أن أقول لك إنها الحقيقة .

– إنه يستطيع إذن أن يجر وحده زحافتي تلك الواقفة أمام الباب وقد جمّدها الصقيع ، وقد يسحبها مسافة مائة متر .

فقال تورنتون بعناد :

– إني واثق من ذلك .

فأطلق ماتوسون ضحكة هزء عالية وهو يحرك كيس نقود أمام وجهه ويقول بصوت مرتفع ليسمعه الجميع :

– أقول لك إن هذا مستحيل ، وإني أراهن على ألف دولار بأنه لا يستطيع ذلك .. وهذا مبلغ الرهان . ورمى على الطاولة كيس تِبرٍ ذهب .

وساد الصمت في المقهى ، وأحس تورنتون أن الأنظار موجهة إليه كلها ، وبدت الكآبة على وجه هانس وبيتر لادعاء صديقهما وشريكهما . والحق أن تورنتون كان على ثقة من أن بوك قادر على سحب مثل هذه الحمولة ، ولكنه لم يختبره من قبل ، ولكن الشركاء الثلاثة لا يملكون مثل هذا

المبلغ ، وأحس بالخجل يجتاحه حينما التقت نظراته بنظرات صديق له قديم يدعى (جيم أوبريان) أحد أثرياء المدينة ، وعاد ماتوسون يقول :

– لماذا تتردد ؟ إن زحافتي محمّلة بعشرين كيس من الطحين ، وزن كل منها خمسة وعشرون كيلو .. هل تخاف ؟

وحفزت هذه العبارة تورنتون ، فتوجه إلى أوبريان قائلاً :

– هل تقرضني ألف دولار ؟

فأجابه الرجل وهو يغمز بعينيه :

– طبعاً .

ووضع على الطاولة كيساً يعادل كيس ماتوسون ، وأضاف :

– ستعيدها إليّ حين تشاء ، ولكن أخشى ألا يستطيع كلبك جرّ الزحافة يا صاحبي !

وغادر الجميع المقهى ، وكان شريكا تورنتون يعضان شفتيهما وقد شحب وجهاهما . وتجمع الناس حول الزحافة المحملة بنصف طن من الطحين ، وقد انغرست في الجليد الذي تجمد عليها منذ ساعتين في هذا الزمهرير .

واختلف الرجال حول معنى كلمة (جَرّ) الزحافة . وقال أوبريان إنه ينبغي فك الزحافة من الجليد أولاً وبعدئذ يبدأ الرهان . واعترض ماتوسون بأن الرهان حول الزحافة في وضعيتها الحالية وأن على الكلب أن يتصرف .

وندم تورنتون على تسرعه ، وكان بوك يصغي بانتباه دون أن يفهم سوى أن الكلام يدور حوله . وحين رأى تورنتون الكلاب العشرة التي تجر الزحافة حكّ رأسه ، فقال ماتوسون :

– أعرض عليك ألف دولار أخرى .. هل أنت موافق يا تورنتون ؟

وتبادل تورنتون النظر مع شريكه ، وفهم أن القضية إما أن تكون خاسرة أو يكون الربح عظيماً ، فلِمَ لا يجربان حظهما !

وفُكت الكلاب العشرة من الزحافة ورُبط بوك أمامها .

كان بوك حائراً يتساءل عما يراه منه وحَدَسَ أن عليه أن يبذل جهده ، ولكنه لم يفهم سبب هذه الفوضى حوله ، وفرح لأن جميع الأنظار متوجهة إليه ، فحرك ذيله مبتهجاً وارتفعت أصوات الإعجاب تشيد بجماله وسعة كتفيه وقوة قوائمه ، ولمس بعض الخبراء عضلاته . وقال أحد أثرياء المدينة :

– أعرض عليك ثمانمائة دولار ثمناً له قبل التجربة .

ورفض تورنتون عرضه ، ووقف بجانب بوك ، والتفت الناس حولهما فقال :

– ابتعدوا أرجوكم .. ولا تنسوا أني أراهن على ألفي دولار ! .

فابتعد الناس عنه ، وجثا تورنتون بجانب بوك وجعل يمسد عنقه وهمس في أذنه :

– هيا يا صاحبي .. افعلها من أجلي .

فالتمعت عينا بوك وهرّ هرير المحب ، ولعق وجه صاحبه بلسانه الأحمر منتظراً أوامره . وأعجب الناس بهذا الحديث الغريب بين الرجل وكلبه مما أضفى لمسة سحرية على الرهان . وحينما نهض تورنتون أمسك بوك يده بين أسنانه وعضها عضاً رفيقاً ، لقد كانت رسالة مودة أراد أن يبلغها صاحبه وكأنه يقول : تستطيع الاعتماد عليّ وإني طوع أمرك ! ونظر بانتباه إلى تورنتون الذي نهض واقفاً ، ثم جاء صوت سيده يمزق الصمت :

– بوك .. انطلق !

كانت عيناه مثبتتين على سيده ، فأطاعه بدقة كأنه آلة ميكانيكية ، فجذب الحبال ثم أرخاها كما تعلّم أن يفعل ، وقطب تورنتون حاجبيه وناداه :

- بوك .. انطلق !

وجذب بوك الحبل يميناً فانزلقت قوائمه على الثلج ، وسمع الرجال صوت طقطقة خفيفة فحبسوا أنفاسهم ، وصاح تورنتون : هيا ... يا بوك !

فجذب بوك الحبل شمالاً وتحولت الطقطقة إلى صوت تكسير ، ثم تحركت الزحافة وتحررت من الجليد ، فاتسعت عيون الناس دهشة ، ثم جاءه الأمر الأخير :

- بوك .. إلى الأمام !

فجمع بوك كتفيه ولوى قوائمه وشد الحبل بجهد جبار ، وكانت مخالبه مفروشة في الثلج وصدره يكاد يلامس الأرض ، وركز نظراته على تورنتون كأنما يستمد القوة منه ، وزلقت قدمه فشهق الناس خائفين ، ثم تحركت الزحافة سنتمترين وزلقت بهدوء فوق الجليد ، وشجعه تورنتون بحركة من يده يدعوه إليها وهو يمشي إلى الخلف ، فاستمر بوك يسحب الزحافة حتى وصل كومة حطب هي الغاية

المطلوبة ، وتوقف حينما أمره تورنتون . فارتفعت أصوات المتفرجين بالتهليل وضجت أيديهم بالتصفيق ، وكان أول المهنئين ماتوسون الذي أعلن أنه غير نادم على خسارته لأنه شهد هذه المعجزة العظيمة .



وجثا تورنتون وأمسك رأس بوك الضخم بين يديه وجعل يهزه كما اعتاد والدمع يترقرق من عينيه ، وبوك يحلق في سماء السعادة .

وعاد ذلك الثري يعرض على تورنتون شراء كلبه ويضاعف له ثمنه ، فصاح الرجل هائجاً :

– إنه ليس للبيع .. ألا تفهم ؟ .

وأدرك الجميع أن الرجل يريد الانفراد بكلبه للتعبير له عن شكره ، ولكن الكلب أمسك يد صاحبه بين أسنانه يعضها عضة ابتهاج .

الفصل الثامن



وهكذا استطاع تورنتون بفضل قوة كلبه أن يربح ألفي دولار في دقائق معدودات ، فسدد بعض ديونه وقرر أن يقوم مع صديقيه برحلة إلى شرق البلاد نحو المنجم الضائع ، وكانت تلك أسطورة شائعة زمن الباحثين الأوائل عن الذهب ، وقد انطلق الكثير من الناس بحثاً عنه ولم يرجع منهم سوى القليل ، وقد نُسي اسم أول مكتشف له ، ولا يعرف سوى اتجاهه ولا يدل عليه إلا كوخ متهدم .

أما الذين قُيضت لهم العودة ، فكانوا يهذون وهم يعرضون على الناس فلزّات الذهب الضخمة ، وهذا أمر لا جدال فيه ، ولم يزعم أحد من الناس أنه يمتلك ذلك المنجم الأسطوري .

أصبح الرجال الثلاثة الآن ميسوري الحال ، فاشتروا زحافة متينة حسنة التجهيز ، واشتروا ستة كلاب يقودها بوك وتوجهوا نحو الشرق .

بدؤوا بالصعود بمحاذاة مجرى نهر يوكون مسافة سبعين ميلاً ، ثم انحرفوا ليتبعوا مجرى نهر (ستيورات) حتى منبعه ، ثم هبطوا المنحدرات الوعرة للجبال التي تشكل نواة القارة ذاتها .

كانت العزلة تامة ، فلا أحد يأتي إلى هذه المناطق المهجورة ، ولكن الرجال في هذه الحملة اعتمدوا على أنفسهم في مواجهة الأحداث ، ولم يكونوا يخافون العزلة لأنهم أقوياء بأنفسهم ، وكان مع كل منهم كيس ملح وبندقية ، يتقدمون في المنطقة غير هيابين ، يصيدون ما يأكلون ولا يهتمون بمرور الوقت .

لذلك كانت زحافتهم خفيفة ليس فيها سوى الذخيرة وأدوات البحث عن الذهب .

واستقبل بوك هذه الحياة الجديدة بفرحة عامرة ، وأسعدته العودة إلى الأراضي الجليدية العذراء ، تمر أيامه بين جر الزحافة والصيد .

اجتازت الزحافة الأراضي الواسعة الممتدة إلى اللانهاية ، فإذا توقفوا أطلقوا الكلاب لتصيد لنفسها وبصحبتها واحد منهم ، ويعمل الآخران على إقامة المخيم ، فعاشوا أيام الرخاء ، ومرت عليهم أيام الشدة حتى أقبل الصيف ، فبنوا طوفاً من جذوع الأشجار واجتازوا به الجداول والأنهار التي لا توجد على الخرائط المعروفة ، وقد عصف بهم حب المغامرة ، فإذا استراحوا صادوا الأسماك المنتشرة في التيارات المائية .

ومرت الأيام والأسابيع والشهور وهم يتقدمون في أراض يظنونها عذراء لم تطأها قبلهم قدم بشر ، وواجهوا تقلبات الطقس وغضب الطبيعة ، وكم انهارت أمامهم جبال الثلج وتدحرجت غير بعيد منهم كتل الصخور ، وعبروا

غابات السرو ليصلوا إلى مساحات غطتها الشجيرات والنباتات ، وقضوا الخريف باحثين في مناطق جرداء عامرة بالبحيرات التي هجرها البط البري نحو الجنوب الدافئ ، ولم يسمعوا سوى خرير الأمواج تموت على الضفاف المهجورة التي تسكنها الريح .

وأقبل الشتاء ثانية فاستقبلوه مرحين ، وحسبوا أنهم وقعوا على أثر فتبعوه ، وكان درباً صنعته يد الإنسان عبر الغابات ، فمشوا فيه زمناً طويلاً ظانين أنه ينتهي بهم إلى الكوخ المتهدم ، ولكن الطريق توقف فجأة مثلما بدأ .

فمن شقه ؟ ومتى ؟ لم يعرفوا أبداً .

واكتشفوا ذات مرة كوخاً متهدماً ، وظنوه الكوخ المطلوب ، وحين فتشوه وجدوا فيه بندقية مما يستعمل في القرن الثامن عشر ، فهل وصل المغامرون إلى هذه المناطق المهجورة أيضاً ؟ ولم يجدوا سوى هذا الأثر لأولئك الشجعان .

حينما ذاب الثلج نصبوا مخيمهم لزمن طويل ، ولم يكتشفوا ذلك الكوخ المذكور ، ولكنهم اكتشفوا في عمق الوادي المحيط ببحيرة واسعة عرقاً من الذهب يكاد بريقه يخطف الأبصار .

ودعتهم الحكمة إلى التوقف هناك ، وكل يوم يقضونه يحمل إليهم من الدولارات قيمة التبر والفلز ، فكانوا يصيدون الأيائل ويصنعون من جلودها أكياساً يملؤونها بها .

ولم تكن الكلاب تفعل شيئاً سوى أن تجر من وقت إلى آخر طريدة صادها الرجال .

وكان بوك يتجول في هذه المساحات الشاسعة ، ثم يعود ليجلس بجانب النار حالماً بأزمنة غابرة لا يدري كنهها .

كان بوك ينطلق في الغابات يتأمل أشجارها السامقة وأنهارها الجارية ، ويتوقع أن يبرز من بينها ذلك الإنسان الأول الذي عرفه أجداده في غابر الدهور ، ولكن ذكرى سيده المحبوب ترده إلى يومه ، فيندم على خواطره ويعود

مهرولاً إليه ليتأمله ساعات طويلة وهو يتثاءب بجانب النار ، وفي ظلام الليل يستجيب لنداء غامض لا يدري معناه ، فيجري ساعات في السهول الجرداء أو على ضفاف الأنهار أو فوق المراعي المزدانة بالزهور .

ويعتاده الصوت أكثر قوة في الليل ، ويحس به أكثر قرباً حينما يجري في الغابات الفسيحة التي تنطلق منها دمدمة غامضة كأنها تتكلم في نومها .

ذات ليلة سمع هذا الصوت في نومه ، فاستيقظ بهدوء وقد نفش فراءه وكشر عن أنيابه وهرول نحو الغابة ، كان النداء هذه المرة أقرب وأكثر وضوحاً وكأنه نباح متطاول لكلب من الكلاب المحلية ، ولكنه أعلى وأكثر وحشية ، فاندفع تحت الأشجار صامتاً كأنه الظل يجري نحو الصوت الذي يبحث عنه منذ زمن بعيد عبر السنوات والعصور ، ثم أبطأ جريه إذ اقترب منه وأخذ حذره ، ثم رآه .

وسط أرض جرداء .. كان ذئب ضخم ضامر من ذئاب الغابة مقعياً وقد رفع رأسه يعوي في وجه القمر .

وصل بوك هادئاً ، ولكن الذئب الوحشي رآه فسكت ، وجذب أذنيه إلى الخلف حذراً ، وتقدم بوك مستعداً للنـــزال ، ولكن مشيته تدل على الرغبة في الوفاق ، فتأمله الذئب ملياً ثم عزم على الهرب .

طارده بوك طويلاً وقد سيطرت عليه رغبة اللحاق به والذئب يجري لا يعرف التعب في مسيل واد جاف تحيط به الأشجار اليابسة . حينئذٍ التفت إليه على عادة الذئاب وقد فتح شدقه متهيئاً للقتال ، ولم يهاجمه بوك بل دار حوله يجر ذيله ويهرّ هرير الصداقة . وذهل الذئب واحتاط لنفسه لأنه لا يصل إلى كتف الكلب الضخم ، وتابع سيره بحركة مفاجئة .

ولحق به بوك مرة ثانية ، ولكن الذئب تفلت منه ، واستمرت هذه المطاردة حتى تيقن الذئب أن بوك لا يريد به

شراً ، فوقف وجعل يتشمم الكلب والكلب يتشممه ، وانعقدت بينهما صداقة ، فبدأا يلهوان تحت ضوء القمر لهواً خشناً كما تفعل الحيوانات المتوحشة ، وحينما استأنف الذئب سيره بتؤدة وثبات كمن يعرف هدفه ، تبعه بوك ثم مشى بجانبه يسايره ، وهرولا ساعات وساعات جنباً إلى جنب ساكتين على حين كان الفجر يبزغ فوق الروابي الغبراء .

أحس بوك بسعادة جديدة وهو يجري مع أخيه المتوحش ، وعبرا جدولاً فشربا منه معاً ، وتذكر بوك حينئذ جون تورنتون .

وبعد أن ارتوى الذئب تابع المسير ، والتفت فرأى أن بوك لا يجاريه ، فعاد أدراجه ودفعه بخطمه دفعات يدعوه إلى متابعته .

ورجع بوك بهدوء نحو المخيم والذئب يسايره أكثر من ساعة وهو يهرّ هريراً خفيفاً ، ولكنه حينما أصبح قريباً من

المخيم أقعى وهو ينظر إلى بوك مبتعداً عنه ، وسمع بوك النداء يدعوه وتردده الغابات المعتمة زمناً طويلاً .

كان تورنتون قد تناول فطوره حينما اندفع إليه بوك قادماً من الغابة ، ودهش الرجل للعاطفة الفياضة التي أحس بها الكلب تجاهه وهو يلعق وجهه ويديه وينبح فرحاً ويتقلب على الأرض مرحاً ، واستجاب تورنتون لهذه العاطفة ما وسعه دون أن يدري بما يدور في دماغ الكلب .

الفصل التاسع



لبث بوك في المخيم يومين وليلتين لا يخرج منه ولا يرفع بصره عن سيده متشوفاً إلى كل حركة منه وكأنه يخشى أن يفقده ، ثم انتابه القلق إذ تذكر تلك المسيرة الطويلة إلى جانب أخيه المتوحش ، فعاد إلى تجواله في الغابات ، ولكنه لم يعثر للذئب على أثر .

أصبح بوك الآن مكتمل البنية ، ولولا تلك البقع الصهباء على خديه لحسبته ذئباً ضخماً وقد ورث عن الذئاب مكرها وشدة عزمها وورث عن أبيه قوته وشجاعته ، وعن أمه طول عنقها وتناسق أعضائها وحدة ذكائها ، وهذبت هذه الصفات الجسمانية والخلقية في مدرسة الشمال الكبير ، فكان تورنتون لا يسأم من تملي محاسنه وهو يردد أنه

لم ير في حياته كلباً بمثل قوته وعزيمته وذكائه ، لكن تورنتون لم يلحظ التحول البطيء الذي يتعرض له بوك ، أفما يزال كلباً ؟

إذا رأيته يجري في الغابات مشية الذئاب ، خفيف الخطا يتبع مسيل الأودية ارتبت فيه وظننته حيواناً متوحشاً يتجول في مجاله الطبيعي كالملك في المملكة ، يهاجم أعشاش طيور الثلج وينبش الأرض عن الأرانب ، ويستطيع بوثبة واحدة الإمساك بالسناجيب الرمادية على سرعتها ، فيقتل ليأكل ، ولا يقتل للتسلية أبداً .

أقبل الشتاء مبكراً هذا العام ، وهبطت أسراب الأيائل بأعداد وفيرة نحو الأودية تحتمي فيها من فصل الجليد ، ولم يكن بوك يخشاها ، وقد قتل أيِّلاً صغيراً ، ولكنه لم يواجه أحد الذكور القوية ، وهو يتشوق إلى منازلة واحد منها .

وقد عرضت له هذه الفرصة حينما أبصر سرباً منها يسرع في الأودية يقودها زعيم هرم ضخم الجثة يتجاوز طوله

المترين ، وكانت قرونه الطويلة تتشعب إلى أكثر من أربعة عشر فرعاً ، وتمتد حوالي المترين ، وعيناه الصغيرتان محمرتان غضباً ، ولعل السهم الذي انكسر في خاصرته هو الذي عكر مزاجه وجعله دائم الهيجان . وليس الأيل حيواناً مسالماً ، فهو يضرب بقوة وسرعة ويتصف بالشجاعة في مواجهة الخصوم .

ووجد بوك أن الأيل الهرم يصلح له نداً ، وما إن أبصره حتى رفع صوته عالياً وحرث الأرض بظلفه من الغضب ، فهو لا يهاب هذا الذئب ، ويدري أن الذئاب لا تهاجم سوى الصغار والإناث ، وتؤثر الهجوم مجتمعة في رهط منظم . لكن ذكاء بوك مختلف عنها ، فقد أوحت إليه غريزته المتوارثة من آلاف السنين أن يبعد الزعيم عن بقية السرب ، وليس هذا أمراً سهلاً ، فالأيل مجرِّب حنكته الأيام وأحكمت قوته المعارك .

دار الكلب حوله يثيره نباحه المتواصل وهو حريص على أن يكون بعيداً عن متناول قرونه التي قد تشق بطنه بطعنة واحدة ، أو أظلافه المسطحة التي قد تكسر صلبه إذا أصابته .

وأما الأيل فكان يهاجمه من حين إلى آخر ، فيتطارد له الكلب ويستدرجه وراءه ، ويتأمل الأيل سربه مبتعداً عنه ثم يعود إلى مهاجمة الكلب وقد احتار بينهما .

واستمرت هذه اللعبة النهار بطوله ، فالحيوانات قادرة على الصبر والثبات لأن حياتها رهينة بهما . وجعل بوك يهاجم السرب ويضطر الأمهات إلى استدعاء صغارها والالتصاق بها . وحينما مالت الشمس إلى الغروب سئمت الأيائل من تخلف زعيمها عنها وهي تدرك بغريزتها أن الشتاء قريب ، ومنطق البلاد الجليدية يملي عليها أن تضحي بواحد من أجل سلامة الجميع ، فتخلت عن الزعيم وأوغلت مبتعدة في الغابات .



وقف الأيل يثير الأرض بظلفه وينظر بحقد إلى هذا الحيوان الذي لا يصل إلى ركبتيه ولكنه يسعى إلى الإجهاز على حياته الحافلة بالانتصارات ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد بوك يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، فيمنعه من الرعي أو ورود الماء ، ويذود النوم من عينيه إذا غلبه النعاس ، فاهتاج الأيل جوعاً وعطشاً وأرقاً ، وجعل يهاجم عدوه هجوماً عشوائياً لعله ينال منه بضربة حظ .

ولكن بوك حاوره وداوره حتى أنهك قواه .

ويجلس الكلب بجانب الغدير يلغ فيه ، فإذا حاول الأيل الاقتراب منه ليروي ظمأه كشر له عن أنيابه ، فيتأهب الأيل وقد خفض قرونه .. فيهرب بوك بضعة أمتار ويحرمه من الماء .

مساء اليوم الرابع انقض بوك على الأيل المرهق وشق حنجرته ، ولبث بجانب فريسته تلك الليلة والنهار بعدها يأكل ثم ينام مستريحاً ، ثم اتخذ سبيله إلى المخيم .

انطلق بوك بخطوات متزنة متواترة لا تعرف العياء ، متوجهاً إلى المخيم بحدس لا يخيب ، هذا الحدس الذي فقده الإنسان وبه استبدل البوصلة المغناطيسية ، وكلما اقترب من المنطقة انتابه إحساس غامض بأن أمراً طارئاً قد حدث فيها وتوقع كارثة لا يعرف كنهها . ومازال يجري حتى وصل إلى الشلال القريب من المخيم ، فطامَنَ من سيره وأخذ حذره .

بعد ثلاثة أميال أبصر آثار أقدام جديدة ، ولكنها غريبة متوجهة نحو المخيم ، وأحس بأن من واجبه الإسراع ، فالصمت ثقيل والطيور توقفت عن التغريد والغابة ساكنة لا تصدر منها أصوات . وما إن اقترب من المخيم حتى رأى نيج مرمياً على الثلج وقد شكّ سهمٌ فؤاده ، وبعد مائة متر وجد أحد الكلاب المحلية التي اشتراها تورنتون وهو في النـــزع الأخير ، فاجتازه بوك مسرعاً ، ولكنه توقف إذ سمع أصواتاً مختلطة صادرة عن المخيم ، فتقدم زاحفاً على بطنه ، فوجد في الأرض الخلاء جثة هانس وقد نشبت فيها سهام

الهنود الحمر ، ولمح حول الكوخ جماعة منهم يرقصون رقصة النصر .

نهض الكلب مزمجراً واندفع إليهم وسقط وسط حلقة الرقص مكشراً عن أنيابه ، ينهش هذا ويخمش بأظافره ذاك . وحاول أحدهم أن يرميه بسهم فأخطأه وأصاب أحد رفاقه ، وسيطر الذعر والهلع عليهم جميعاً واعتقدوا أنه " روح الشر " المتجسد ، فهربوا إلى الغابة وهم يصرخون .

وطاردهم بوك إلى الغابة وفتك ببعضهم ، ثم عاد إلى المخيم المتهدم . كانت جثة بيتر ما تزال ملفوفة بالأغطية وقد جاءه الموت فجراً ، والأرض حول الكوخ محفورة ملطخة بالدماء تدل على المعركة الهائلة التي خاضها سيده تورنتون دفاعاً عن نفسه ، فتشمم بوك الأرض وهو يزمجر ، فقاده الأثر إلى ضفة البحيرة .

على الضفة كانت جثة الكلبة (سكيت) مرمية ويداها ممتدتان في الماء المختلط بالدماء وفية لسيدها حتى الموت .

كانت مياه البحيرة الهادئة العميقة قد ابتلعت جثة سيده المحبوب .

قضى بوك الليل والنهار متجولاً في المخيم ، ينبح نباح الألم والشكوى ويئن أنين المحزون ، لقد غيّر موت سيده مجرى حياته وزعزع وجوده وولّد في ذاته شعوراً جديداً بعد أن هاجم الرجال وقتلهم ، فكان يتشمم جثثهم الهامدة ويعجب لسرعة موتهم ، إذ لم يكونوا مخيفين كما كان يظنهم .. ولم يعد يخشى الانسان بعد الآن .

وقف أمام الكوخ يتنصت لأول مرة ودون تعذيب ضمير إلى ذلك الصوت البعيد الذي كان يناديه ، فرفع بوك أنفه نحو القمر وأطلق عواءً طويلاً رددت الآفاق صداه .

هاهنا تنتهي حكاية بوك .

ولكننا نعلم أنه بعد مرور السنوات بدأ الهنود الحمر يلاحظون تبدلاً كبيراً لدى ذئاب الغابة ، إذ غدت أكبر

حجماً وأقوى فتكاً ، وصار لبعضها بقع صهباء على خدودها ، أو بقع بيضاء على جباهها وصدورها .

حتى زمننا هذا يتحدث الهنود الحمر تحت خيامهم عن كلب كالعفريت ، ضخم الجثة يتزعم عصابات الذئاب ، وهو أمكرها جميعاً ، يسرق الطعام من المخيم ويقتل الكلاب ويتجنب الفخاخ ولا يهاب الرجال المسلحين .

لم يعد أحد يجرؤ على الاقتراب من ضفة البحيرة ، إذ يلمحون في الليالي المقمرة ذئباً ضخماً كثيف الفراء يتجول في أطلال المخيم ويتشمم الأكياس المصنوعة من جلود الأيائل التي يتدفق منها غبار أصفر ناعم ، يتجول ويبحث ويتشمم ، ثم يرفع أنفه إلى السماء ويطلق عواءً عالياً ، ويعود إلى الغابة كما يفعل أجداده في غابر العصور .

****
******
*

وادي الذهب الخالص



كان التيار يتواثب بين الصخور المتراصة قوياً ، ويندفع إلى شلال مرتفع تجمعت فيه الأشجار الميتة ، ثم يهبط الوادي الواسع ، فتغدو الخضرة أقل انتشاراً ، وتتشبث أشجار الصنوبر بالمنحدرات ، ويهدأ سطح الماء ويجري متباطئاً ، حتى لتظن نفسك في الفردوس بشواطئه المزهرة ، ومن حين إلى آخر تثب سمكة من الماء وتمسك بعوضة ، وعلى الضفاف يرعى العشب أيل أصهب في نور الصباح .

كانت الضفة الأولى تنحدر انحداراً يسيراً تحت قدمي صخرة يضيئها نور الشمس ، والضفة الثانية سهول خضراء هادئة ترصعها الأزهار البيضاء .

وما يزال مجرى النهر يضيق وتشتد سرعة التيار وتتدافع بين الصخور الأشجار الميتة والأغصان المكسورة تتواثب بينها أسماك السلمون .

وفي البعيد تشمخ قمم السييرا البيضاء لامعة تحت أشعة الشمس الدافئة .

كان هواء الوادي نقياً لا تشوبه شائبة ، فلا غبار ولا دخان يلوثان الأزهار التي ترتفع مزهوة بنفسها فخورة بألوانها ، والأيل الأصهب يرعى سعيداً ويطرد حيناً بعد حين ذبابة تطن في أذنه .

وبغتة نصب الأيل أذنيه والتفت برأسه إلى نهاية الوادي ومنخراه يتشممان الهواء ، ثم نهض برهة وانطلق يهرول ، فاختفى بين الشجيرات ثم دخل الغابة .

بعد قليل سمع وقع أقدام رجل يلبس حذاء دقت المسامير في نعله ، وظهر من وراء ستار الخضرة رجل ، فوقف لحظة يتأمل ما حوله ويتشمم الهواء كما فعل الأيل منذ قليل ، وظهرت عليه السكينة وهو يقول بصوت مرتفع :

– انظر إلى هذا الماء والأشجار والعشب ولا أحد هنا ! إنها جنة الباحث عن الذهب ، وسوف ترعى على راحتك يا صاحبي !

كان شاباً طويل القامة حسن الملامح لوحت الشمس وجهه ، والمرح أبرز صفاته ، وعيناه الزرقاوان تضيئان وجهه الأسمر وكأنك تقرأ فيهما أفكاره وتعبران عن الدهشة والوداعة .

رمى على الأرض معول عمال المناجم ورفشاً ومصفاة تستخدم لغسل قراضة الذهب ، ورفع عن رأسه قبعته الخضراء القديمة التي تعاقبت عليها الأمطار وحرارة الشمس ، وكان يرتدي بذلة عمل وقميصاً أسود من

الكتان ، فأغمض عينيه نصف إغماضة ومد ذراعيه وهو يقول :

– يا رب .. يا رب ! ما أجمل هذا !

لقد اعتاد أن يكلم نفسه بصوت مرتفع :

– لا تحدثني بعد الآن عن عطر الورد أو ماء الكولونيا . فلا شيء يساوي عطر الزهور تحت نور الشمس.

ثم استلقى على بطنه وجعل يشرب ماء الجدول البارد ، ونهض وهو يتنفس بارتياح ويمسح فمه بظاهر يده ويتأمل منحدر الوادي أمامه باهتمام ، وهزّ رأسه وجعل يده في كيسه وجذب غليونه ودخانه وبدأ يدخن بهدوء ويتفحص بعين الخبير تكوين الصخور ، وصعد إليها ثم انحدر عنها حتى الجدول ثم هزّ رأسه ثانية ، وقال : " لا بأس به ! "

تناول معوله وصحنه ورفشه واجتاز الجدول وثباً من صخرة إلى أخرى وقبض شيئاً من الطين ورماه في المصفاة ، ثم انحنى على مصفاته وجعلها تطفو على سطح الماء ويحركها

بكلتا يديه ليبعد الطين والرمل ، ثم أمالها ورمى الحصا الكبير في الماء . وكرر هذه الحركة مرات وهو يرمي الحصا والتراب الخشن ، ومازال يفعل ذلك حتى لم يبق في المصفاة سوى الرمل وبعض الحصا الدقيق ، وأمالها مرة ثانية حتى لم يبق فيها سوى رمل أسود يشبه الدخان ، فجعل يتفحصه بعناية ، فظهرت وسط المصفاة نقاط صغيرة لامعة ، فأضاف إليها الماء وحركها ثانية حتى ظهرت حبة ذهب صغيرة . وكرر هذه العملية بيد خبيرة حتى بدت له حبة ثالثة تلتمع في قعر المصفاة ، وبعد ساعات لم يبق في المصفاة سوى حبيبات ذهب دقيقة ، فعدها كما يعد الراعي غنماته ، فكان عددها سبع حبيبات ، فغسل المصفاة في الماء ورماها جانباً وقال مبتسماً :

– سبع حبات . سبع حبات !

وكأنه يريد أن يحضر هذا الرقم في ذهنه بعد عمله الطويل الدائب .

وتأمل الهضبة مرة ثانية يمنة ويسرة ، وكأنه صياد يتفحص آثار طريدته .

وهبط بضع خطوات إلى التيار وقبض شيئاً من الطين وبدأ يغسله بأناة ويستخلص منه حبيبات الذهب ، فوجد عددها خمساً ، ثم تناقصت حتى أصبحت أربعاً ثم ثلاثاً ثم واحدة فقط ، فأشعل ناراً من الأغصان اليابسة وسخّن عليها المصفاة حتى أصبح لونها أزرق غامقاً وفي قعرها ترسبت الحبيبات .

وغسل طبقة أخرى من الطين فلم يجد فيها شيئاً ، فظهرت عليه الفرحة ، وأعاد العملية مرتين على مسافة نصف متر ، فلم يجد شيئاً أيضاً ففرك يديه مبتهجاً ، فرجع حينئذٍ إلى النقطة التي بدأ منها حيث الغدير هادئ ، وبدأ عملية الغسيل بعناية وصبر وهو يضع قبضة من الطين بعد أخرى صاعداً عكس التيار هذه المرة

كانت محاولاته ناجحة ، إذ وجد في القبضة الأولى اثنتي عشرة حبة ، وفي المحاولة الثانية وجد ثماني عشرة ثم عشرين ، حتى وجد ثلاثاً وخمسين حبة تلتمع في قعر المصفاة .



فقال : يجب الاحتفاظ بها .

اقتربت الظهيرة والرجل لا يفكر بالراحة أو تناول الطعام ، ويتابع عمله دون هوادة ، ثم صعد الجداول فكانت النتائج مخيبة لآماله ، ولكنه لم يفقد مرحه ، وحين لا يجد في المصفاة شيئاً يقهقه عالياً ويفرك يديه فرحاً ويقول لنفسه بصوت مرتفع :

– ما أروع أن يتناقص عددها !

وأحس بالتعب فنهض وهو يفرك خاصرتيه ، ثم تأمل الهضبة أمامه وقال يخاطبها وكأنها امرأة :

– آه يا سيدتي ! انتظريني .. فإني آت إليك .

ورفع رأسه إلى السماء يتأمل الهواء ، ثم هز رأسه وانحدر مسرعاً مع التيار ، واجتاز المنطقة التي غسل فيها الطين ثم اختفى من حيث جاء ، ولكن هدوء الوادي الصغير كان يتردد فيه صوته المرتفع بالغناء .

بعد مدة سمعت ضجة عالية وراء الأشجار ، ثم ظهر وراء الأغصان حصان يحمل أدوات الرجل وفي فمه قبضة من العشب ، فتأمل الوادي ثم أحنى رأسه إلى الأرض يرعى ، وبعد قليل ظهر حصان آخر يجري بسرعة وتقدم نحو العشب الكثيف ، وعلى ظهره سرج مكسيكي مهترئ حائل اللون ويترجح على جانبيه كيسان .

وظهر الرجل وراءه .

كان يلهث وهو يفك سرجيهما ويتركهما يتجولان بين المروج . ثم نصب خيمته ورتب مؤونته وأدوات طبخه ، وسارع إلى جمع الحطب والأغصان اليابسة وجعلها بين ثلاث حجرات ، وقال مخاطباً نفسه :

– حسناً .. إني جائع . وسوف أبتلع الحصا أو أسلاك الحديد .. نعم يا سيدتي ، وأكون لك شاكراً إن حصلت على صحن آخر !

ونهض ليأخذ علبة الكبريت من جيبه ، ولكنه وقف يتأمل المنحدر من الناحية الثانية . حك رأسه وتردد لحظة وعلبة الكبريت في يده ونظر إلى أدوات طبخه ، ثم انحنى وتناول معوله ومصفاته واجتاز الجدول ، وقال ساخراً من نفسه وهو يهز رأسه :

– ما هذه الأفكار العجيبة .. ولكن تأخير ساعة عن الغداء ، لم يقتل أحداً ..

وباشر العمل . ومر عليه الوقت وهو يحفر حتى مالت الشمس إلى المغيب ، وأعتمت أشجار الصنوبر دون أن يلحظ الرجل ذلك . كان يحفر ويرمي الطين في مصفاته ويغسلها في التيار ، ثم يعيد الكرة دون أن يشعر بالتعب ، وصنع حفرة في المنحدر ثم ثانية وثالثة بدقة متناهية ، وكان مركز كل حفرة يعطي نتائج باهرة ، وحينما لا يجد الذهب في حفرة يتوقف عن الحفر فيها ويصنع حفرة أخرى أعلى منها ، وقد رسم في ذهنه خطة للعمل بحيث يعثر على عرق

الذهب الذي يدعوه " سيدتي " فيتأمل ما صنعته يداه ويقول :

– هيا يا سيدتي أظهري نفسك .. ألا تريدين ؟

ثم يعود إلى عمله .

أصبحت قبضات الطين الآن أكثر ثراء ، وقدّر أنه من المناسب الاحتفاظ بنتيجة عمله ، فجمع الحبات الذهبية في علبة صفيح قديمة .

كان منهكاً في عمله حتى إنه لم ينتبه إلى حلول الظلام ، وحينما لاحظ أنه لا يستطيع تبين الحبيبات من الحصا نهض بغتة مذهولاً وكأن الشمس قد كسفت فجأة وتمتم قائلاً :

– آه .. لقد نسيت الغداء !

اجتاز الجدول مرة ثانية وأوقد ناراً وبدأ يطهو طعامه من الفاصوليا المغمسة في اللحم المجفف والتهمها بشراهة الجائع ، ثم اتكأ وأشعل غليونه وجعل يتأمل الهضبة المواجهة له تحت ضوء القمر ، وأخيراً نزع عنه حزامه ودخل فراشه الذي

كان على شكل كيس واتكأ على سرج حصانه ، ولكنه قبل أن يغمض عينيه رفع صوته منادياً :

– تصبحين على خير يا سيدتي الهضبة .

ثم ذهب في نوم عميق .

أشرقت الشمس ولامست أشعتها الدافئة وجهه ، فنهض فزعاً وتلفت حوله كأنه لا يعرف أين هو . ثم وثب دفعة واحدة فلبس حذائه وتأمل الهضبة ذاهلاً ثم نظر إلى النار الخامدة وقال يكلم نفسه :

– يا بيل .. سيدتي الهضبة لن تهرب ، والرجل الجائع لا يتقن عمله ، أما الآن ، فالمهم أن تحصل على شيء لطيف تحسّن به وضعك !

فأخرج من جيبه شيئاً شبيهاً بالصنارة ثم قال :

– في هذا الوقت يكثر السمك !

ثم رماه إلى الماء ، وبعد قليل صرخ فرحاً :

– ألم أقل لك ؟ هذه واحدة .

وسارع إلى سحب الخيط فإذا في نهايته سمكة شبوط تتلوى غاضبة ، وبعد قليل صاد سمكتين أخريين ، وكان هذا طعام فطوره ، فأشعل النار وجعل يشويها فوق العيدان ، وحينما تناول أدواته انتابه قلق مفاجئ وفكر :

– يجب أن أتفقد المنطقة وراء المضيق ، قد يكون أحد ما هناك ..

ولكنه هز كتفيه واجتاز الجدول وهو يقول لنفسه :

– سأرى هذا فيما بعد .

ونسي التفكير في هذا الأمر بعد قليل وانصرف إلى عمله باهتمام .

غابت الشمس وهو ما يزال يعمل ، فنهض يمسد ظهره :

– آه ، نسيت الغداء مرة ثانية ، إذا لم أنتبه لنفسي فسوف أغدو واحداً من هؤلاء المجانين الذين يفقدون شهيتهم إلى الطعام .

حينما أقبل الليل واندس في كيس نومه لم ينس أن ينادي الهضبة متمنياً لها ليلة سعيدة .

طلع الفجر فإذا هو مستيقظ يسخن على النار فطوراً دسماً ، فالتهمه مسرعاً وباشر عمله بحماسة تضاعفت لرؤية حبات الذهب الكبيرة ، ولم يشعر بمرور الوقت ، وقد سال عرقه واحمر وجهه وأنهكه التعب . لقد شارفت خطته على الانتهاء وسوف يؤدي الحفر إلى بداية عرق الذهب الذي يبحث عنه .

فقال لنفسه :

– هذا هو المكان لا ريب ، إنه يظهر جلياً كالأنف وسط الوجه .

لم يستطع مقاومة هذا الإغراء فحمل أدواته وملأ مصفاته بالعينة من ذلك المكان وهبط إلى النهر ليغسلها فيه .

لا شيء ، لم يكن فيها شيء ! ولا أثر للذهب فيها ، ولم يتيقن فحفر سطح الأرض ثم تعمق فيها ، وبعد عشر محاولات ترك المعول وجعل يفكر ، ثم قال يخاطب نفسه :

– حسناً يا بيل ما أنت إلى رجل خائب .. هذا يعلمك كيف تكون صبوراً ، ولن تستطيع الحصول على الثروة بالعجلة ، ابدأ العمل من جديد .

ومازال يتعمق الحفر أكثر فأكثر حتى وصل إلى عمق ثمانين سنتيمتراً ، فوجد الذهب في نهاية الحفيرة تحت جذور النباتات تقريباً .

فصعد الهضبة وحفر حفرة بعمق متر ليستخرج منها حفنة تراب يختبرها ، فلم يجد فيها شيئاً ، فقال وهو يتمتم :

– إلى أي عمق سأمضي ؟ لا أحد يدري !

فبصق في يده ثم تناول المعول وغرسه في الأرض ، ورفع عينيه فرأى المروج مزدانة بالزهور ، ووراءه الأرض المحفورة وكأنها ساحة معركة لم يبق منها شيء ، وقد انتشرت الجذور

على سطحها وتفتتت أزهارها ، تشبه ورقة خضراء التهمتها دودة ضارة .

ولاحظ أنه كلما تعمق في الحفر كانت العينة أغنى بالذهب . وحينما أقبل المساء كانت العينة ملء الرفش تساوي دولاراً ذهباً .

أعد لنفسه عشاء من السمك وهو يمسد ظهره الذي أتعبه الانحناء .

وقال لنفسه قبل أن ينام :

– ما أتعسني إذا جاء أحد ليحفر في هذه المنطقة !

ثم وثب واقفاً وقال بأعلى صوته وهو يحرك إصبعه أمام أنفه :

– بيل .. أتسمعني يا بيل ؟ ستقوم بجولة في المنطقة غداً صباحاً ، هل فهمت ؟ غداً صباحاً قبل بدء العمل .

ثم اتكأ وتثائب مخاطباً الحفرة :

– تصبح على خير يا عرق الذهب !

تناول فطوره مطلع الفجر ، ثم صعد الهضبة وأشعة الشمس المشرقة تتسلل بين الأشجار ووصل القمة فألقى نظرة شاملة : كانت السكينة تامة على مرمى البصر ، والجبال البعيدة كأنها تتوكأ بعضها على بعض ، وناحية الشرق والجنوب والغرب يواجه المشهد نفسه : الغابات الواسعة الهادئة والهواء صاف كالكريستال ، والظاهر أن الإنسان لم يطأ هذه المناطق ولعله أول إنسان يزورها .

وخيل إليه للحظة أنه يرى دخاناً يتلوى صاعداً من الوادي ، فتأمله مدة طويلة بانتباه شديد ثم هز رأسه :

– لم يكن سوى انعكاس الضباب على الصخور .

ثم صاح فرحاً :

– انتظرني أيها العرق الذهبي فإني قادم إليك !

وبدأ يهبط الهضبة بأقصى سرعته وحذاؤه الثقيل يتواثب فوق الصخور كأنه غزال بري ، ولكن تكسرت إحداها تحت قدميه وهو في منتصف الطريق فلم يخف واستعاد توازنه ،

وتابع هبوطه والصخور تتدحرج من حوله ، وكلما سقطت واحدة جذبت معها سواها ، ولم يكن يدرك الخطر المحيق به حتى وصل إلى جانب النهر وعدة أطنان من الصخور قد استقرت على حافة الماء .

ذلك الصباح ، حين غسل العينة في النهر وجدها تساوي دولارين من التبر وحبيبات الذهب ، فاستمر في الحفر عميقاً غير مبال بالتعب حتى وصل إلى الطين اللزج على عمق متر ونصف ، ووجد أن عرق الذهب قد غدا ثميناً من الدرجة الأولى ، وما عليه سوى أن يعمل فيه وحده .

مساءً ، كانت العينة الواحدة تساوي ثلاثة أو أربعة دولارات ، فتأمل الهضبة وهو يقول :

– أحد أمرين : إما أن يكون العرق ممتداً في الهضبة وهذا حسن ، أو أنه عرق هائل لا أقدر على استخراجه كله ، وهذا عجيب !

وفوك يديه لهذين الاحتمالين معاً ، وحينما هبط الظلام كان قد غسل عينة تساوي خمسة دولارات ، فتناول وجبة ثقيلة على الرغم من أنه لا يشعر بالجوع ، وبدأ يضحك وحده بصوت مرتفع كالمجنون وهو يتأمل المنحدر أمامه ، ويفتح عينيه وهو راقد في كيس النوم منتظراً طلوع الصباح .

وما كادت النجوم تغيب حتى نهض فتناول فطوره سريعاً وبدأ يحفر خاصرة المنحدر ، فرأى أن العرق منتشر فيها متقاربة خطوطه ، فقال لنفسه :

– اهدأ يا بيل .. لا تتوفز يا ولدي !

ثم خاطب الهضبة .

– أما الآن يا سيدتي فقد سيطرت عليك .

وتابع الحفر كأنه آلة لا تعرف التعب ، فوصل إلى عمق متر ثم متر ونصف ثم مترين حتى ارتطم معوله بصخرة قاسية ، فتناول الإزميل وانهال عليها حتى فتتها وجرف ما تناثر منها ، وتفحصه فظنه يلتمع تحت ناظريه ، فجثا بجانبه

وأخذ حفنة منه بحنان الفلاح يتفحص حبة قمح زرعها ورمى عنها التراب والأجسام الغريبة ، فلم يكد يصدق عينيه ، إن نصف الكوارتز من حبيبات الذهب ، لقد وقع على عرق الذهب الخالص .

قبض بيده حفنة من الكوارتز المتفتت وجعل يفركها ويستخلص حبيبات الذهب منها ، وقال :

– يقولون عن المنجم إن فيه ذهباً كثيراً ، أو إنه غني بالذهب وأما هذا فأدعوه : وادي الذهب الخالص .

ضحك بصوت خافت وهو يرمي حفنات الكوارتز في المصفاة ، وأحس بغتة بشيء يخز ظهره كأن شخصاً وراءه . لم يلتفت ولكن يبست حنجرته وسال العرق تحت إبطه وفوق ظهره ، والتصق قميصه بظهره ولم يكن ليعرف نوع الخطر ، ولكنه متأكد منه لأن حياة العزلة المتطاولة جعلته يستشعر بالغريزة وجود الآخرين .

لم ينهض ولم يلتفت وجعل يدرس الموقف ، إنه متأكد من حضور شيء لعله موته بالذات .

تنفس بعمق وتغلب على فزعه الذي بدأ يجتاحه وبدأ يفتت بين أصابعه قطع الكوارتز التي لا يكاد يراها ، وتناول حبيبة ذهب ونظفها بعناية وهو يحس وراء ظهره بالخطر ، الخطر الذي ينظر إلى الذهب من فوق كتفيه .

ثم شعر بتنفس الآخر قصيراً متتابعاً ، وتجول بعينيه يبحث عن شيء ، عن سلاح أو أداة يدافع بها عن نفسه ، فلم يجد سوى التراب المتناثر وحبات الذهب التي لا فائدة منها الآن .

لو كان معوله أو رفشه معه لكان سلاحاً فعالاً ، ولكنه محصور في قعر هذه الحفرة بعمق مترين ونصف وكأنه واقع في فخ ، وفكر دون أن يتوقف عن تنظيف حبيبات الذهب ورميها في المصفاة وقد تقطعت أنفاسه .

ماذا يفعل ؟ تمنى أن ينهض فجأة ويواجه الآخر ، وأيبست هذه الفكرة حنجرته مرة ثانية وأحس بخدر في أطرافه ، هل ينهض بهدوء ويتناسى حضور الآخر ويتظاهر باكتشافه ؟

كان وجوده كله يميل إلى الفكرة الأولى ، ولكن العقل والحيلة ينصحانه بالتأني والتظاهر .

وبينما كانت هذه الأفكار تتصارع في رأسه أصابت كتفه الأيسر لكمة قوية وأحس بألم شديد .

أراد أن ينهض ولكن لم تحمله ركبتاه وسقط في قعر الحفرة ، وجهه بين الذهب والحصا وقدماه تحته لضيق المكان ، وارتجف قليلاً ثم هدأت حركته .

كان الآخر منحنياً على طرف الحفرة ، وظل وقتاً طويلاً يرقب الجسد الهامد ممسكاً بيده مسدسه الذي يتصاعد منه الدخان مصوباً نحو هذا الجسد الذي يتوقع أن يقوم بخدعة ما ، ولبث مدة طويلة لا يتحرك .

بعد دقائق عادت إليه ثقته ، فجلس على الأرض فوق الحفرة وهو لا يبعد بصره عن الجثة ، ووضع سلاحه على ركبتيه ، ومد يده بهدوء إلى جيبه فأخرج ورقة سيكارة وقبضة من التنباك ولفها ثم أشعلها ودخن باستمتاع وأناة .

بعد أن أنهى السيكارة لفَّ واحدة أخرى وأشعلها منها ، ومرت الدقائق ولا يبدو عليه العجلة ، فقد تأنى طويلاً لئلا يخاطر بنفسه ، فتناول حجراً ورماه فوق الجثة فلم تتحرك ، فاطمأن ، وانتظر دقائق أخرى حتى أنهى سيكارته ورمى عقبها ، وتدلى إلى الحفرة مستنداً إلى الجدار بيديه ممسكاً بالمسدس وعيناه ترقبان الجسد المسجى أمامه ، وما إن أصبح على عدة أشبار من القعر حتى ترك يديه ووثب ، حينئذ نهض الجسد بقفزة واحدة وأمسك قدميه بسرعة البرق ، فضغط على الزناد فكان صوت الرصاص هائلاً في هذه المساحة المحصورة ، ففقد توازنه وسقط على الأرض ، وكان بيل قد جلس فوقه بكل ثقله وقبض على المسدس . وانطلقت

رصاصة ثالثة وضاعت في التراب والحصا ، واقتتل الرجلان بوحشية وكل منهما يحاول توجيه المسدس إلى الآخر . وبدأ المهاجم يرى بوضوح حينما رمى بيل وجهه بحفنة تراب فأعمى عينيه ، فأطلق صرخة ورمى المسدس ، فالتقط بيل المسدس وأفرغه في جسم مهاجمه ، وامتلأت الحفرة بالدخان ، فرماه وهو يرتجف ولا يكاد يسمع ، وجلس على قدمي القتيل وقال وأسنانه تصطك من القهر :

– النذل .. يتبعني حتى أنهى عملي ، ثم يهاجمني غدراً !

كان جسمه يرتعد وهو يتذكر كيف تظاهر بالموت ، ثم قلب القتيل على وجهه وجعل يتأمل وجهه المملوء بالتراب والحصا : هذا جزاؤك أيها النذل .. تطلق النار على ظهري يا غادر .



وقال لنفسه بعد أن تأمل جراحه :

– من الممكن أن تكون أسوأ .. لحسن الحظ أنه لم يرفع يده عالياً وإلا قضى علي .. يجب أن أعالج نفسي بسرعة وأغادر المكان .

وصعد من الحفرة بصعوبة وهو يدوس رأس الميت بحذائه الثقيل .

بعد نصف ساعة رجع وهو يجر حصانه ، وتحت قميصه المفتوح تبدو ضمادة لفَّها على عجل ، وكانت ذراعه ثقيلة ولكنها لا تمنعه من الحركة ، فلفَّ الحبل تحت ذراعي الميت وصرخ بحصانه فرفعه من الحفرة ، وبدأ يجمع حبات الذهب وهو يرتجف ويقول من حين إلى آخر :

– النذل .. أطلق النار على ظهري .

بعد أن جمع الحبات كلها في ملاءة تأملها بعين الخبير وقال :

– يوجد مئتا كيلو على الأقل ، مائة كيلو منها حصاة وتراب فيبقى مائة كيلو ذهب ، أي أربعون ألف دولار على

أقل تقدير ، أربعون ألف دولار لك يابيل .. لك وحدك ، وقد كسبتها بعرق جبينك .

ومسد شعره بيده فوجد جرحاً لم ينتبه إليه ، لقد مرت الرصاصة الثانية على جلدة رأسه وجرحته عدة سنتيمترات ، وعاد إليه غضبه ، فركل برجله الجثة المسجاة أمامه :

– هذا ما فعلته بي يا غدار ! وأنا الذي سأدفنك يا نذل ! كنت تريد أن تدفنني ولم تقدر !

جر الجثة حتى الحفرة ورماها فيها ، فسقطت بصوت مرتفع ووجهها إلى أعلى مغطى بالتراب .

" آه .. أطلقت النار على ظهري "

وردم الحفرة بسرعة ، ثم أثقل ظهر حصانه بالذهب ورجع إلى خيمته فوزع بعض ما يحمله على الحصان الآخر الذي يركبه ، وقرر أن يتخلص من أدواته ومؤونته .

حوالي منتصف الظهر انطلق يسوق حصانيه ، فعبر الدغلة التي تغطي مدخل النهر ، فتعثر حصانه الذي يجره

وراءه ، فاضطر إلى إنزال الحمل عنه ثم أنهضه وقطع به النهر .

عاد بعدئذٍ إلى الوادي وصاح بأعلى صوته :

– الوداع .. يا نذل !

وغابت أغنيته في جنبات الوادي ، ثم عاد الهدوء ولم يبق من شاهد على ما جرى سوى الحفر المتناثرة هنا وهناك ، وفي قمة الهضبة قبر إنسان .

****
******
*

الشوق إلى الحياة

كان رجلان يهبطان بمحاذاة
الضفة الموحلة والإرهاق باد
عليهما وهما يعرجان ووجههما
مشدود القسمات لما يلاقيانه ،
وقد حملا على ظهريهما كيساً ،
وربطت فوقه الأغطية بأحزمة تمر على الجبهة وبين الكتفين ،
وبيد كل منهما بندقية ، وكانا يمشيان صامتين منذ ساعات ،
وأكتافهما منحنية تحت الثقل ، وعيونهما تحدقان في الأرض .

قال أحدهما :

– لو كانت معنا خراطيش ، آه .. كل ما معنا مخبوء
هناك !

لم يتردد صوته في الوادي لأنه تكلم بصوت خافت ، ولم
يلتفت إليه صاحبه الذي يسبقه ، ولم يجبه بل كان ينظر إلى
موطئ خطواته التي يثبتها على مجرى التيار السريع البارد
وهو يدفع الحصا .

وتبعه صاحبه وهو يضع قدميه على الصخور بحذر ،
وكان الماء شديد البرودة بحيث لم يشعرا بأقدامهما ، ثم وصل
الماء المتجمد حتى ركبتيهما .

انزلق الرجل المتأخر عن صاحبه وكاد يسقط ، ولكنه
استعاد توازنه ووقف على رجل واحدة وهو يقطب وجهه من
الألم ، وحاول أن يضع قدمه الأخرى وهو يجأر ، وأحس
بالدوار في رأسه ومد يده ليتمسك بشيء ما ، وبعد أن تغلب
على ألمه ثبَّت قدمه ووقف ساكتاً لا يتحرك كأنه يفكر فيما
حدث له ، ثم نادى صاحبه الذي خرج من الماء وبدأ يصعد
المنحدر المواجه له :

– بيل .. بيل .. لقد تصلبت قدمي .

ولم يلتفت إليه بيل بل تابع طريقه ، وتأخر عنه الآخر يرقبه مبتعداً عنه وهو ساكت .

حينما وصل بيل إلى منتصف الطريق فتح الرجل الذي ظل في الماء فمه وأطلق صرخة وحشية :

– بيل ! .

وتحركت شفتاه بنداء الاستغاثة هذا ، وتابع الآخر طريقه مرتقياً المنحدر بهدوء .

ما زال يتابعه بعينين غائمتين حتى انحدر بيل من الجهة الثانية وغاب عن ناظريه .

حينئذٍ دار بعينيه بهدوء يتأمل هذه الصحراء الجليدية وهو وحيد فيها وقدمه لا تطاوعه على المسير . ونقل الرجل ثقله إلى قدمه الأخرى وجذب ساعته .

كانت الساعة الرابعة والشمس في الجنوب الشرقي تقريباً ، لأنه يجهل التاريخ ولا يعرف سوى أنه في آخر أيام تموز وأوائل آب ، وكل ما يعرفه أنه في الجنوب تقع بحيرة

(الدب) وراء سلاسل الهضاب هذه ، ووراءها يوجد القطب الشمالي . وهو الخط غير المرئي الذي يقطع الغابات الكندية المهجورة على الخريطة .

إن النهر الذي يقف فيه هو فرع من نهر (كوبرماين) وهو يصب في الشمال في خليج المحيط المتجمد .

لم يذهب إليه ولكنه تفحصه بعناية على خرائط (شركة خليج هدسون) ، وتلفت حوله ثانية ، ليست المناظر بهيجة : كانت الهضاب الواطئة ذات النباتات القصيرة تملأ الأفق كأنها دائرة هائلة رمادية غير مبالية ، فلا شجر ولا دغلة سوى هذه النباتات الرمادية الواطئة ترتجف تحت الرياح ، وتمتم لنفسه :

– بيل ... بيل ..

وارتجفت يده وسقطت بندقيته في الماء فأعاده هذا إلى الواقع ، فتغلب على خوفه وتلمس بندقيته في الماء حتى أمسك بها ، وجعل حمله على كتفه الأيسر لكي يخفف الثقل

عن قدمه ، وتوكأ على بندقيته وتقدم نحو الضفة متحاملاً على نفسه وهو يعبس من الألم . وحين وصلها لم يتوقف بل تابع سيره بعزيمة تشبه الجنون ، وتسلق المنحدر المملوء بالحجارة على آثار بيل ، وما إن وصل إلى المرتفع نظر فإذا أمامه مرتفعات أخرى .

اجتاحه الخوف من جديد ، فدفع كيسه إلى اليسار أكثر وبدأ يهبط المنحدر .

في بطن الوادي كان الماء ساكناً تخفيه الطحالب الكثيفة ، فإذا مشى فيه أحس كأنه يمشي على إسفنج ، وتابع سيره يتبع آثار صاحبه خطوة خطوة ويصعد الصخور مجتنباً المياه العميقة .

كان وحيداً ولكنه يعرف الطريق ، سيصل إلى منطقة فيها العديد من جذوع السرو الميتة ، يدعوها الهنود " بلاد العصي الصغيرة " وفيها بحيرة صغيرة ونهر رقراق سيقطعه وسيجد مساحات من القصب .. إنه يذكر هذا كله .

سيمشي بمحاذاة النهر حتى النبع الأول الذي يخرج من الهضبة ثم يصعدها ، وسيجد نبعاً آخر يتحول إلى تيار يسيل نحو الشرق ، فينبغي عليه السير بمحاذاته حتى يصب في نهر " ديز " وهناك يوجد المخبأ ، إنه القارب المقلوب وقد حجبته الحجارة ، وسيجد في المخبأ خرطوشاً ، كثيراً من الخراطيش لبندقيته وعدداً من الصنارات وشبكة صيد ، ويستطيع أن يصيد بكل هذا ما يشاء بالإضافة إلى بعض الدهن والفاصولياء .

وأسالت هذه التخيلات لعابه ، وتصور نفسه يلعق الحساء وقد غمس فيه قطع الخبز اليابس ، فضحك ضحكات كثيرة ، وزالت عنه الرؤيا ووجد نفسه في الهضاب الرمادية المغطاة بالنباتات الصغيرة . نعم .. لا ريب أن بيل قد سبقه إلى المخبأ وهو يحضر الشاي ، شاياً أسود طيب الطعم ، ولا يبقى عليهما حينئذٍ سوى ركوب القارب والهبوط في نهر " ديز " إلى بحيرة (الدب) ومنها إلى نهر " الماكنـــزي "

المنحدر إلى الجنوب ، على حين يجري الشتاء وراءهما دون أن يدركهما وتتجمد المياه في الشمال ، ولا أهمية لذلك لأنه سيجد حساء الفاصولياء ، وإذا وصلا خليج الهدسون يكونان قد وصلا إلى مركز الشركة حيث المؤونة وفيرة والحطب كثير .

وضحك في سره جاداً في السير متحاشياً إرهاق قدمه المصابة .

كان واثقاً أن بيل ينتظره في المخبأ ، وسوى ذلك محال ، أليس كذلك ؟ نعم .. نعم .. يجب أن يفكر بهذه الطريقة ، وإلا ما الفائدة من الكفاح ؟ الأفضل له حينئذٍ أن يرقد منتظراً الموت ، وعلى حين كانت الشمس تغيب شيئاً فشيئاً في الأفق الضبابي انصرف تفكيره إلى الأشياء الحسنة التي سيجدها في المخبأ وفي مركز الشرطة في خليج الهدسون .

لم يأكل منذ يومين ، ومنذ زمن طويل لم يأكل ما يشبعه لأنه قتر في طعامه ، وهو جائع بل شديد الجوع منذ يومين .

وينحني حيناً بعد آخر فيلتقط حبات من نبات بري شبيه بالفريز وهو يدري أنه بذور لا تغني ولا تسمن من جوع ، وليس فيها سوى الماء ، ولكنه يمضغها بأمل أقوى من التجربة .

حوالي التاسعة مساءً أظلم الليل واصطدمت قدمه بصخرة فآلمته ، فجلس على الأرض منهك القوى ، واتكأ على خاصرته وتخلص من حمله ، ثم زحف باحثاً عن قطع من الطحالب اليابسة ، وجمع كمية منها فأشعل فيها النار وجعل يغلي الماء في قدر صغيرة اسودت من الاستعمال .

وفتش في كيسه وبدأ يعدّ أعواد الكبريت الباقية معه ، إنها سبعة وستون عوداً ، وعدها ثلاث مرات ليتأكد منها ، فوزعها على ثلاثة أقسام ولفها في ورق مشمَّع ، ووضع قسماً منها في علبة التبغ وقسماً آخر في قميصه ، والقسم الثالث في قبعته . سبعة وستون أم ستة وستون ؟ وعدها مرة ثانية ، إنها سبعة وستون فعلاً .

والتهبت النار فجفف حذاءه المبلل ، أو ما بقي من حذائه إذ كان ممزقاً ، ونعله مثقوب ، وكذلك جوربه الذي قصه من بطانية قديمة ، وقد ظهرت على قدميه الفقاعات .

ومد قدمه المصابة فإذا هي متورمة زرقاء ، فقص قطعة من بطانيته ولفها بعناية ، ثم قص قطعاً أخرى لفَّ بها قدمه الأخرى ، ثم شرب الماء الساخن واندرج في البطانية ونام حتى السادسة صباحاً . لقد أقبل الليل مسرعاً ومضى وأشرقت الشمس أو النهار ، لأن السماء مغطاة بسحب رمادية .

استيقظ وهو لا يدري أين هو ، وكل ما يدريه أنه جائع ، فجلس متكئاً على مرفقه وهو يحس بآلام شديدة ، وسمع فجأة تنفساً عالياً وراءه ، ولمح حيوان الرنة ذكراً ضخماً ينظر إليه بفضول حذر ، كان على مسافة عشرين متراً ، فتناول الرجل بندقيته بهدوء وصوبها نحوه وضغط على الزناد ..

وقعقع الزناد في الفراغ ولم تنطلق الرصاصة ، وهرب الحيوان وهو يضرب الصخور بأظلافه .

اهتاج الرجل غيظاً فرمى البندقية التي لا نفع فيها ، وأنّ أنيناً عالياً وهو يحاول النهوض ، فكانت مفاصله كلها تؤلمه بالإضافة إلى قدمه الملتوية ، وقضى عدة دقائق حتى استقام واقفاً ، وتأمل المشهد من حوله فلم يجد شجرة ولا دغلة إلا هذه النباتات الرمادية الواطئة والطحالب الرمادية على مد النظر . ولم تظهر الشمس طول النهار ، وذهل عن مكان وجوده ، ثم تذكر أنه في بلاد العصي الصغيرة ، لعلها وراء هذه الهضاب !

نظر إلى الكيس وكأنه يتأمل شيئاً يعذبه ، لم يكن ثقيلاً ولكن آلامه خيلت له أنه أثقل من جبل ، فلف فوقه بطانيته ثم جذبها بقوة وحملها على ظهره ، ورمى ببصره إلى تلك المساحات الواسعة المهجورة المحيطة به .

انطلق في طريقه وقدمه تؤلمه ألماً فظيعاً ، ولكن أقل مما تؤلمه معدته الخاوية ، فكان يدلّكها من حين إلى آخر ، وندم

لأنه تناول تلك الثمرات إذ أحس بالمرارة في فمه ، والتهب سقف حلقه .

في الوادي المنبسط كانت تتطاير لمقدمه الطيور البرية ، فيتناول حجراً ويرميها به ولكنه لا يصيبها ، فأنزل الكيس عن ظهره وجعل يلاحقها من صخرة إلى صخرة ، فكانت الحجارة المسننة تمزق بنطاله وتجرح ركبتيه ، ولكنها لا تؤلمه بقدر ما تؤلمه معدته ، فإذا ظن أن أحد الديكة في متناول يده نهض هارباً منه ، فكاد يصاب بالجنون .. فبدأ يزحف في الماء وهو يطلق صرخات يقلد بها أصواتها ، ولحسن الحظ وقع على أحدها وكأنه نائم في عشه ، فارتمى عليه .

ولكن الديك فر مذعوراً ولم يبق في يده سوى ثلاث ريشات من ذيله ، فجلس يتأملها والدمع يكاد يطفر من عينيه ، ثم عاد إلى الكيس يحمله ، وكلما تقدم في السير نقص عدد الديكة .

ومر على مرمى بندقيته سرب من قطيع الرنّة يتبختر أمامه ، فكاد يجن من الجوع وهو ينظر إليه مبتعداً .

حوالي الظهر رأى ذئباً أسود يحمل في فمه ديكاً .. يا لها من أعجوبة ! فاقترب منه وزأر في وجهه زئيراً مخيفاً ، ولكن الذئب أعرض عنه ولم يترك طريدته !

بعد الظهيرة وصل إلى غدير ، كان غديراً بلون اللبن ، حجارته كلسية تنمو فيها نباتات من نوع القصب ، وجذورها كجذور البصل ، فبدأ يمضغها ويبلل ريقه بنسغها ، كانت قاسية مرة المذاق ولكنها خير من لا شيء .

وتمنى لو يستريح قليلاً ، ولكن الأمل في الوصول إلى " بلاد العصي الصغيرة " أقوى من التعب .

في المستنقع بحث عن الضفادع والديدان فلم يجد منها شيئاً ، وهو يعلم أنها لا تعيش في الماء المتجمد .

في نهاية النهار وجد سمكة صغيرة في حفرة ، فغمس يده ليمسك بها فهربت ، فغمس يديه الاثنتين فاضطرب الماء

وارتفع الطين الأبيض وحجب عنه السمكة ، فتناول قدره الصغيرة وعزم على إفراغ الحفرة من الماء . كان يرمي الماء قريباً من الحفرة فيسيل إليها من جديد ، فاضطر إلى رميه بعيداً وقلبه يخفق من الجوع ، ولما أفرغها تماماً ولم يعد فيها قطرة ماء لم يجد السمكة ، وفتش الحفرة جيداً فوجدها تتصل بشق داخل الصخرة مع حفرة أكبر منها مملوءة ماء . فقضى النهار والليل حتى أفرغها ولم يجد السمكة ، لعلها هربت داخل الصخور .

فجلس على الأرض وهو يبكي حزناً وجوعاً ويرفع صوته عالياً كالطفل الصغير . وانقضت مدة وهو يرتجف منتحباً بلا دموع .

وأقبل الليل فأشعل النار وغلى الماء وشربه ، لم يعد يحس بألم أقدامه إذ أنساه الجوع كل ألم سواه ، فنام ملتفاً بأغطيته المبللة وهو يحلم بولائم عامرة بقطع اللحم الغارقة في الدهن .

نهض صباحاً يهزه البرد وفي رأسه دوار ، وكانت الغيوم في السماء أكثر سواداً وتجري جرياً سريعاً ، والريح تحرك النباتات القصيرة وتجعد سطح الغدران البيضاء .

بعد قليل بدأ الثلج الخفيف يتساقط ويذوب ، ثم بدأ يتراكم على الأرض فانطفأت النار ، فحمل كيسه دون تفكير وسار على غير هدى ناسياً بلاد العصي الصغيرة وناسياً بيل ، يعذبه الجوع ويجر قدميه في الوادي ويأكل ما يصادفه من نبات كأنه نائم يمشي في حلمه .

وحين أقبل المساء نام في أغطيته المبللة ولم يفكر في إشعال النار ، ولا تسخين الماء ، فقد بدأ المطر يتساقط ويذيب الثلوج .

صباحاً ، لم يحس بألم في معدته ، كأنها تيبست ، وأحس بالضعف ، وقدمه توجعه لكنه لم يبال بها ، وشعر بعذاب صامت أصم لا يقدر على الاستجابة إليه ، وقبل أن ينطلق

رمى بحذائه الممزق ولف قدميه بقطعة أخرى من بطانيته وتأمل كيسه المصنوع من جلد الأيل ثم حمله متثاقلاً .

كان المطر قد أذاب الثلج تماماً ، ولكن الشمس لم تظهر في السماء ، وتلفت حوله يستهدي طريقه فوجد أنه قد تحول إلى جهة اليسار ، فقرر أن يدور جهة اليمين التي ظنها طريق الوصول . ولاحظ أنه يتألم أقل لأن ضعفه شديد ويضطر إلى التوقف مرات ليلتقط أنفاسه ، وكان لسانه جافاً منتفخاً كأنه مغطى بالشعر ، وطعمه مر المذاق .

وبدأ قلبه يثير قلقه ، إذ أنه حين صعد المرتفعات اضطر إلى التوقف وقلبه يتواثب في صدره والأرض تدور به .

منتصف النهار وجد حفرة كبيرة فيها سمكتان صغيرتان بطول الإصبع ، واستحال عليه إفراغها من الماء ، ولكنه أمسك بالقصعة وجعل يداورهما حتى قبض عليهما وبدأ يمضغهما دون تلذذ ، كأنه واجب يدعوه إلى إطالة حياته .

مساءً ، أمسك ثلاث سمكات . اثنتين صغيرتين وثالثة أكبرمنهما ، فمضغ الصغيرتين ووفر الكبيرة إلى الغد .

وهبت الريح فجففت الطحالب بحيث استطاع أن يشعل ناراً صغيرة سخن عليها بعض الماء وشربه ، لقد قطع خمسة عشر كيلو متراً في نهاره كله .

صباحاً ، غلى السمكة في الماء والتهم كل شيء ، ومشى سبعة كيلو مترات ذلك اليوم ، ولم تعد معدته تؤلمه ، واستغرب إذ تصور نفسه يمشي . وتغيرت المناظر الطبيعية من حوله ، إذ كثرت حيوانات الرنة وارتفع عواء الذئاب .

وأقبل الليل وتبعه النهار ، وكان ما يزال قادراً على التفكير ، فتأمل كيسه المصنوع من جلد الأيل ثم فتحه ، كان فيه كمية من التبر والذهب ، فنظر إليها طويلاً ثم قسمها نصفين ، فأعاد النصف الأول إلى الكيس ، وخبأ الثاني تحت صخرة بعد أن لفّه بقطعة قماش ، ومزق البطانية ولفّ

قدميه ، واحتفظ بالبندقية لأن في المخبأ جانب نهر (ديلز) خراطيش كثيرة .

ذلك النهار تكاثف الضباب وضلّ طريقه وأضاع اتجاهه ، ولكن ذلك لم يقلقه لأن معدته استيقظت وبدأت تشغل تفكيره ، فوضع كفيه حول رأسه ليمنع الدوار من الإطاحة به ، وغامت عيناه حتى لا يكاد يرى ، فاصطدمت قدمه بعش ديك بري ، فأمسك الكتاكيت والتهمها بشراهة غير مبال بزُقائها ، وأقبلت الأم تهاجمه فلوّح ببندقيته ، وشاءت المصادفة أن يكسر جناحها ، فلاحقها وهو يقذفها بالحجارة ، وتابعها بشتائمه ، ولكن أصابه الدوار وسقط أرضاً .

ووجد نفسه وسط مستنقع في الوادي ، حيث الوحول لزجة والطحالب كثيفة ، ولاحظ أثار أقدام لا يمكنها أن تكون له ، لعلها أثار بيل ، فلم يتوقف ليفحصها وقرر أن يفعل ذلك بعد إمساكه بالدجاجة البرية التي كانت تبتعد عنه

عدة أمتار ، فكلما كاد يقبض عليها فرت مرة ثانية ثم سقطت منهكة ، كذلك كان يفعل هو فلا يمشي عدة أمتار حتى يهوي متعباً . وحينما أقبل الليل كانت الدجاجة قد اختفت في الظلام ، وانهار على الأرض وجرح خده بصخرة مسننة .

في اليوم التالي لم يحاول تفقد آثار بيل ، فما أهمية ذلك ؟ وتساءل عما إذا كان بيل قد ضل طريقه أيضاً .

لم يعد يستطيع حمل كيسه ، فقسم الذهب الباقي إلى قسمين واحتفظ بقسم منه ورمى الباقي أرضاً ، وبعد الظهر رمى القسم الباقي والكيس في الجدول ، ولم يعد معه سوى نصف بطانية وبندقية وسكين وقدره الصغيرة ، وبدأت تنتابه أفكار ثابتة ، فقد خيل إليه أنه بقي في بندقيته رصاصة واحدة وهو يعلم أن هذا خطأ ، ولكن ألحت عليه هلوساته فاضطر إلى تفقد بندقيته مرات عديدة حتى زالت عنه هذه الفكرة

الثابتة ، إذ كانت فارغة ، ولكن عاودته بعد نصف ساعة ولم تزل عنه إلا بصعوبة .

واجتذبته من ضباب هلوساته رؤيته لحصان واقف أمامه ، لم يكن حصاناً كبيراً ، ولكنه حصان على أي حال ، يتمشى كأنه ثمل ، ثم اختفى في الضباب ، ولم يكن حصاناً بل دباً .

كان دباً أسمر اللون ، تفحصه باهتمام كبير واستل سكينه من غمده ، فالدب لحم أيضاً ودم وحياة ، ومرر إبهامه على نصلها فإذا هو قاطع كالشفرة ، وتأهب مستعداً لمهاجمة الحيوان ، لكن قلبه ذكره بضربات قوية أنها عملية انتحارية وفجأة انتابه الخوف ، فماذا لو هاجمه الدب ؟ فوقف : عيناه واسعتان والسكين بيده ، فانتصب الدب على قائمتيه الخلفيتين وزمجر . لو هرب الرجل لبدأت المطاردة ، ولكن الرجل لم يهرب ، بل تأهب واقفاً وزمجر بصوت أعلى من الدب .

ورأى الدب من الحكمة أن يتراجع أمام هذا المخلوق الرهيب ، فسقط على قوائمه الأربع وهرول مبتعداً وهو يزمجر متوعداً . وظل الرجل واقفاً حتى اختفى الدب فجلس على الأرض وهو يرتعد خوفاً وقلبه مضطرب الخفقان .

عادت إليه السكينة ، فلاحظ أن عدواً جديداً قد ظهر أمامه ، إنها الذئاب ، فهل مقدر لهذا الجسد البائس أن تهلكه الذئاب بعدما بذل من جهد ؟ ومن حين إلى آخر كان ذئبان أو ثلاثة ترقبه ، إذ لم يكن عددها كافياً لمهاجمته .

حوالي العصر وجد عظاماً متناثرة لأيل افترسته الذئاب ، فاعترق هذه العظام التي ما تزال عليها قطع من اللحم ، وهل من الممكن يا رب أن تكون عظامه شبيهة بهذه العظام قبل انقضاء النهار ؟

وتوقفت تأملاته ، إذ كان جالساً فوق الطحالب المبللة بالماء وهو يتلذذ بلعق العظام وقضمها بأسنانه لعلها تمنحه

شيئاً من الحياة ، ثم كسرها بين حجرتين وغلاها بالماء وشربه .

وسقط الثلج في الأيام التالية ، وبعده هطلت الأمطار ، ولم يعد يدري متى ينام ومتى ينطلق ويمشي أمامه متعثراً بالحجارة لا يبصر شيئاً ، ويخوض وحول الوادي سائراً إلى الأمام .. إلى الأمام ..

وفقد إرادته ، وإنما تدفعه غريزة البقاء ، وسعار الحياة قد تملك جسده واستخلص منه قوى لا يمكنها أن تظهر لولا خوفه من الموت ، فهو يمشي مثل آلة ، القدم اليسرى فالقدم اليمنى ، يسقط ثم ينهض ثم يسقط ، وكان يمصّ العظام المكسورة التي يجدها ، وحينما يتوقف الإنسان عن الكفاح فإن جسمه هو الذي يتولى توجيهه على هواه ، معدته تقرصه وقدماه تتحركان وحدهما . وعيناه متوسعتان على رؤى فردوسية .

إنه لا يتجه إلى مكان معين وإنما يسير في واد فسيح ، فلم يكن يرى النهر ولا الوادي وإنما يمشي .

فجأة استيقظت حواسه ، كان مستلقياً على ظهره قرب صخرة ، فسمع صوتاً واضحاً لصغار الرنة ترعى بجانبه ، واختلطت في رأسه الذكريات ، ذكريات مطر وثلوج وتخللتها عاصفة ، فهل دامت ساعتين ؟ أسبوعين ؟ لا أهمية لذلك .

وأدفأت الشمس وجهه وجسمه ، فطرف بعينيه وهو يفكر بأن النهار سيكون رائعاً .

بعد زمن طويل تقلب على خاصرته بصعوبة ونظر إلى النهر الذي يسيل هادئاً ، أين هو ؟ الهضاب أقل ارتفاعاً من قبل وأكثر جدباً وبرداً . وتابع مجرى النهر ببصره فرآه يصب في البحر ، ففرك عينيه منذهلاً ، نعم أنه بحر واسع ساكن تلتمع فيه أشعة الشمس وقد أرست فيه سفينة ، فتأمل هذه الهلوسة باستمتاع ، ولِمَ لا يستمتع بها ؟ فأغلق عينيه ثم

فتحهما فلم تزل الرؤيا ، وأسف لأنه لا يوجد في هذه المنطقة الجرداء بحر ولا سفينة ، كما لا يوجد في بندقيته خرطوشة واحدة .

سمع ضجة وراءه ، فالتفت فإذا هي زمجرة مخنوقة ما بين الأنين والعواء ، فتدحرج على نفسه لشدة ضعفه ونظر إلى الناحية الثانية فلم ير شيئاً .. ولكن الزمجرة المخنوقة ما تزال .

وساقت الضجة بصره إلى ما بين صخرتين حيث ذئب قابع ولا تبدو عليه العافية ، فعيناه حمراوان كالدم ورأسه مائل إلى الأرض ، وهو يطرف بعينيه على الدوام وكأن نور الشمس يؤذيهما ، وكان يسعل ويئن وهو مشرف على الموت .

وفكر .. هذا على الأقل شيء واقعي .. والتفت مرة ثانية ليتأمل النهر ، فخفق قلبه حين أبصر البحر اللامع

والسفينة راسية في البعيد ، أهي الحقيقة إذن ؟ هل هذا ممكن ؟ .

وحرك ذهنه بما تسمح له قوته .

قبل أن تصيب الثقوب ذاكرته كان قد مضى نحو الشمال الشرقي واستمر في هذا الاتجاه ، فابتعد عن النهر (ديز) ليحاذي وادي (كوبرماين) وهذا النهر هو الكوبرماين الذي يصب في المحيط القطبي المتجمد ، إنه هذا البحر اللامع ، وتلك السفينة ؟ لعلها سفينة لصيد الحيتان وقد ضلت شرق الماكنـــزي . وتذكر بوضوح غريب خريطة (شركة خليج هدسون) نعم .. نعم .. الأمر واضح .

وجلس بهدوء يتفحص حالته ، كانت قطع البطانية التي ربط بها قدميه قد تساقطت مزقاً ، وجفت القروح عليها فلم يعد يحس بألمها ، لقد أضاع كل شيء ولم يبق لديه سوى قدره الصغيرة التي يملكها منذ سنوات ، وكذلك ساعة يده ،

ولاحظ أنها ما تزال تعمل وتشير إلى الحادية عشرة .. لعله ملأها بشكل لا إرادي بحكم العادة .

إنه الآن هادئ ساكن النفس ، لا يحس بجوع ، ولا يشعر إلا بالضعف الشديد ، وهز رأسه وهو يتأمل قدمه الملتوية التي لا يحس بألمها .

قبل أن يقوم برحلته باتجاه السفينة أشعل ناراً ليسخن عليها بعض الماء ، وحاول النهوض فلم يقدر ، فمشى على أربعته وتوجه ناحية الذئب ، فابتعد الحيوان عن طريقه ، فشرب الماء ونهض واقفاً لعله يستطيع السير ، ومشى والذئب يتبعه .

كان يتوقف كل بضع دقائق يلتقط أنفاسه ويهدئ نبضات قلبه ثم ينطلق .

مساءً ، لا حظ يائساً أنه قد قطع ستة كيلو مترات . وأثناء الليل سمع الذئب يسعل قريباً منه ، وفي البعيد تناهت إليه أصوات حيوانات الرنة تنادي بعضها بعضاً .



في الصباح رأى الذئب يزحف من الحمى في البرد القارس ويكشر عن أنيابه بطريقة عفوية غريزية .

ومشيا النهار كله أحدهما وراء الآخر ، والرجل المريض ينظر من حين إلى آخر نحو الذئب المريض ، ولم يكن لأحدهما القدرة على قتل الآخر وافتراسه .

بعد الظهر رأى آثار أقدام إنسان يمشي تارة ويزحف على أربعة تارة أخرى ، وظن أنها آثار بيل ، ولم يتأن عند هذا الظن لأنه مشغول بالسير إلى الأمام ، وتبع آثار الرجل الذي يمشي على أربعته ، وسرعان ما وجد بقاياه : بضع عظام متناثرة عليها بقايا لحم ، وعلى الأرض انطبعت مخالب العديد من الذئاب ، ولفت نظره لمعان أصفر ، ورأى الذهب متناثراً من كيس مزقته الذئاب ، إنه كيس بيل ، فضحك بما بقي فيه من قوة ، لقد حمله بيل إلى هنا ، وسوف يحمل معه كيس الذهب إلى السفينة الراسية فوق البحر اللامع .

كيف يهزأ برُفات بيل ؟ ولكن بيل تخلى عنه وكان يهزأ به لو كان مكانه .

انحنى على جدول ماء ساكن فانعكست صورة وجهه ، فتراجع مذعوراً ، أبصر سمكتين أو ثلاثاً في الماء ، ولم يحاول الإمساك بها ، فالماء عميق الغور ويخشى أن يغرق فيه لشدة ضعفه .

هذا المساء ، مشى خمسة كيلومترات ، وفي اليوم التالي قطع ثلاثة ، ولم يدر كيف أنه لم يمت بعد ، وهذا الموضوع لا يهمه إطلاقاً ، وبدأ يزحف على أربعته . وفي المساء لاحظ أن السفينة على مسافة ستة كيلومترات .

كم يلزمه من الوقت مع هذا الذئب الذي يهرّ ويمشي معه ؟

كانت الدماء تسيل من قدميه وركبتيه فيلعقها الذئب ، ولو كان هذا الذئب قوياً لافترسه بسهولة .

وانتابته حالات من الإغماء المتطاولة ، وفي إحدى المرات أيقظه تنفس الذئب قرب أذنه ، فجلس ، فابتعد عنه ثم سقط على عدة أمتار منه .

ونظر إلى السفينة تتراقص في نقاط الضوء التي تلتمع في عينيه ، ورأى قارباً بشراع أبيض يسير بين السفينة والشاطئ .

ماذا يفعلون ؟ إنه غير قادر على قطع هذه الكيلو مترات الستة التي تفصله عنهم ، ولكنه عازم على الحياة بكل خلية من خلايا جسده المتهالك ، ولا سبب يدعوه إلى الموت بعدما قاساه من عذاب ، أليس كذلك ؟

كان مستلقياً على ظهره ، فسمع خطوات الذئب الخائفة تقترب منه ، فرمى يده الضعيفة فلم تصب الحيوان ، وتراجع الذئب إلى الوراء .

لبث نصف النهار مستلقياً على ظهره لا يتحرك ، يدفع الإغماء عنه ويرقب حركات الذئب واقتراب تنفسه منه ، كان ينبغي لأحدهما أن يكون طعاماً للآخر .

أحياناً يحس ببحر ساكن لا حدود له يجتاحه فيحلق فكره في سماء السعادة ، ولكن شعلة الحياة تنوس بداخله وتحرسه من لسان الذئب الذي يلعق يده .

وانتظر هادئاً حتى أطبق الذئب أنيابه على يده ، فانقلب فوقه وأمسك عنقه بيده الأخرى ، وغرس أسنانه في عنقه .

لم يكن الذئب من القوة بحيث يجذب رأسه ولا الرجل بحيث يقتله .

بعد نصف ساعة توقفت حركة الذئب وشعر الرجل بشيء ساخن كأنه الرصاص الذائب ينساب في معدته .

وبعد قليل تدحرج جانباً وفمه ملطخ بالدماء ونام .

كانت " بوفورد " سفينة صيد أميركية ، ولكن على متنها بعثة علمية مؤلفة من رجال يمسحون بمناظيرهم المقربة كل ما يرونه على اليابسة .

ورأوا من سفينتهم شيئاً غريباً يتجه نحو الأمواج بخطا وئيدة ، ويهبط الضفة تدريجياً ، فأنزلوا القارب واتجهوا إلى البر .

اكتشفوا شيئاً حياً كان شبيهاً بالإنسان .

أعمى أصم يزحف على بطنه كأنه دودة ضخمة بحركات لا نفع منها ، ويقطع عشرة أمتار في ساعة ، وجاؤوا به إلى ظهر السفينة .

بعد ثلاثة أسابيع استعاد الرجل وعيه في حجرة الإسعاف من السفينة ، وروى لهم ما حدث له بعبارات متناثرة لا رابطة بين معانيها ، والدموع تسيل غزيرة من عينيه على خديه المجوفين ، وذكر شيئاً عن كاليفورنيا وعن منــزل يغتسل بأشعة الشمس وأشجار برتقال تفوح بالعطر .

بعد أيام استطاع أن يجلس إلى المائدة مع رجال العلم وضباط السفينة .

كان يكره الناس حين يأكلون خوفاً من أن تنفد المؤونة ، فيسائل عنها القبطان والطباخ والخدم ويؤكدون له أنها وافرة ، ولم يقتنع إلا حين رآها في العنابر بعينيه .

لم تفارقه شراهته إلى الطعام حتى وصلت السفينة إلى أميركا ، وألقت مرساها في خليج سان فرانسيسكو .

****

******

*

الفهرس

نـــداء الغــابة

جاك لندن

نداء الغابة: حكاية كلب يدعى (بوك) يرحل صوب صوت مجهول في الغابة، يعيده إلى مسيرة أجداده ...

لا تعرف في هذه الحكاية ما إذا كان بوك كلباً أم كانت الغابة تناديه لأنه على هيئة ذئب .

من خلال ذلك تمر أحداث كثيرة ومشوقة.

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE
سورية - حلب هـ ٢٢٤٤٧٠٨ - دمشق هـ ٢٢٣٠٢٨٣